ابن شرف القيرواني

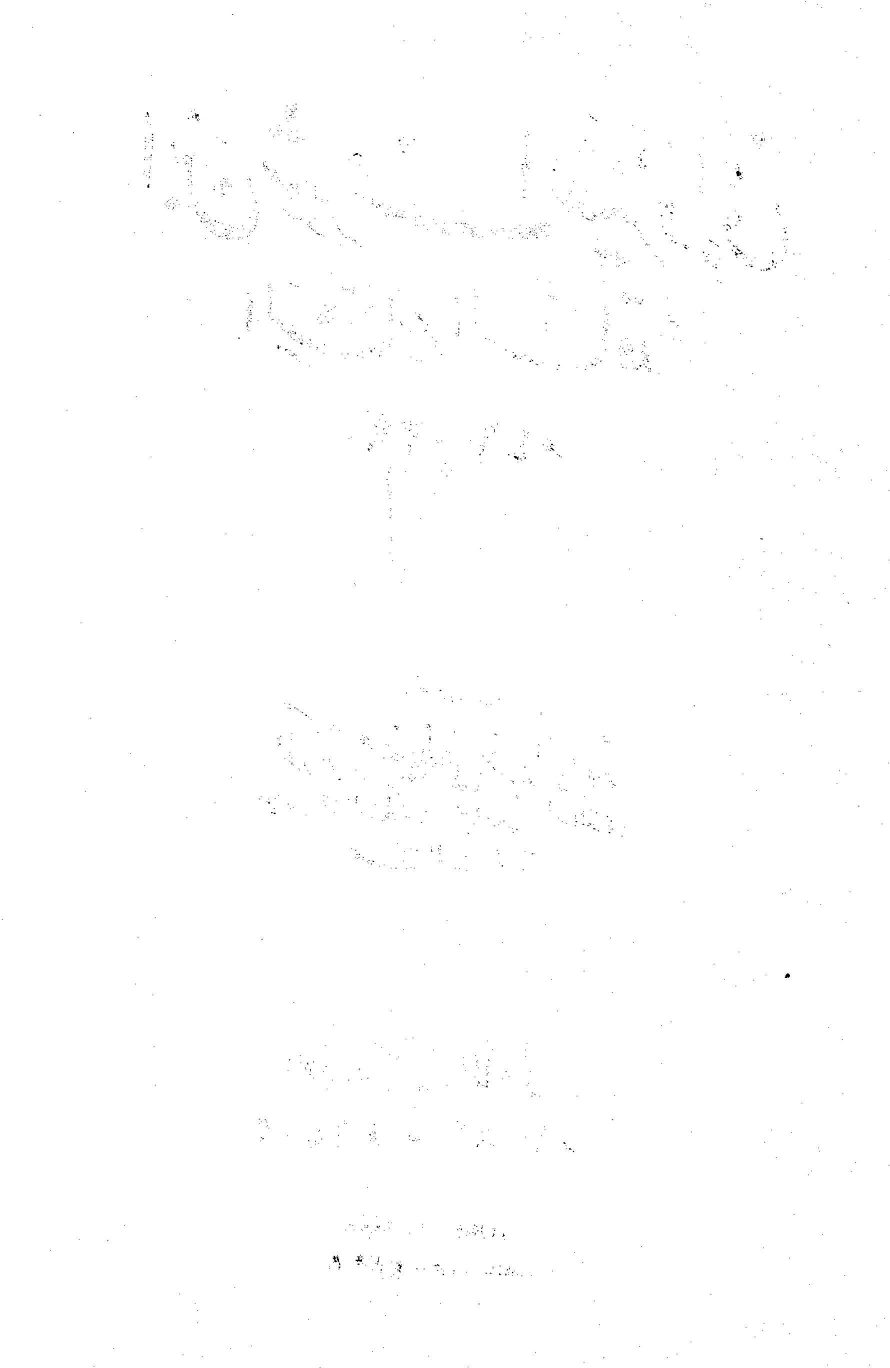
الشاعر الناقد

٣٩٠ - ٤٦٠ هـ

الدكتور مصطفى عبد الواحد
الأستاذ المشارك بجامعة أم القرى
بمكة المكرمة

الطبعة الأولى
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مطبعة دار التأليف
٨ شارع يعقوب بالمالية
ت : ٢١٨٢٥



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه دراسة موجزة لنتاج أديب من أدباء المغرب والأندلس فى القرن الخامس الهجرى ، لم يلق حظاً من الشهرة ، رغم أصالته وابتكاره .. وهو ابن شرف القيروانى رفيق ابن رشيق ومنافسه فى ديوان المعز بن باديس الصنهاجى فى القيروان .. التى كانت إذ ذاك حاضرة اسلامية تزهو بحضارتها وتزخر بالعلماء والأدباء ..

والملاحظ أن أدباء المغرب لم يلقوا حظاً من العناية فى الدراسات الأدبية المعاصرة ، كما لقى أدباء المشرق ، باعتبار أن أدباء المشرق كانوا المثل المحتذى لأدباء المغرب ..

مع أن فى أدباء المغرب من اهتدوا إلى ما لم يهتد إليه أدباء المشرق .. فى مجال الشعر والنثر والنقد .. فلابد من تحليل نتاجهم ومقارنته بنتاج المشارقة لتحديد مواطن الالتقاء .. وتقدير التأثر والتأثير ..

وقد صحبت ابن شرف — فى هذا البحث الوجيز فى شعره ونثره ونقده .. وإن كان جانب النقد قد طغى على

ما سواه لقلة النصوص الشعرية والنثرية الباقية لابن شرف، ولكثرة القضايا النقدية التي تناولها في « رسائل الانتقاد » التي بقيت له في مجال النقد ..

وقد قارنت بين آراء ابن شرف النقدية وآراء بعض النقاد الذين سبقوه في المشرق، لبيان ما استفاده منهم .. وما انفرد به من فكر نقدي أصيل .. كما قارنت بينه وبين معاصره ومنافسه ابن رشيق القيرواني .. في شعره ونقده .. لتقدير العلاقة بينهما حق قدرها .. لينال كل منهما حقه، وتتضح مكانته. وقد حرصت على الاجتهاد على قدر الوسع، ولم أتأثر بدراسات المعاصرين في هذه الموضوعات، وإن كنت قد علقت على بعض آرائهم في موضوعات الخلاف.

وأرجو أن يكون هذا البحث الموجز إضافة في دراسات أدب المغرب والأندلس، تضع لبنة في الصرح الذي ينبغي أن يشاد، لهذه البيئة الأدبية الخصبة التي ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية قروناً عديدة.

ومن الله سبحانه العون والتوفيق.

مكة المكرمة — شعبان سنة ١٤٠٢هـ

د. مصطفى عبد الواحد

ابن شرف القـــيروانى

الشاعر الناثر الناقد

محمد بن أبى سعيد بن أحمد بن شرف القيروانى الجذامى، أحد فحول شعراء الأندلس والمغرب(١) قال عنه ابن بسام: «كان أبو عبد الله بن شرف بالقيروان، من فرسان هذا الشأن، وأحد من نظم قلائد الآداب وجمع أشتات الصواب وتلاعب بالمنظوم والموزون، تلاعب الرياح بأعطاف الغصون ولابن شرف أصالة منزعه وجلالة مقطعه، ومتانة لفظه، وسعة حفظه (٢)».

وقد لفت انتباهى إلى تأمل نتاج هذا الأديب أنه جمع بين الشعر والنثر والنقد .. وكان أصيلا مبتكرا فى كل منها ..

وليس فى المراجع التى ترجمت له مايشفى الغلة عنه، إلا ما جاء فى ذخيرة ابن بسام، ومعجم الأدباء لياقوت ..

---

(١) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ٣/٣٩ تحقيق احسان عباس .

(٢) الذخيرة لابن بسام الجزء الاول من القسم الرابع ص ١٣٣ .

وما عداهما فقد أكتفي بإيراد اسم الرجل والإشارة إلى مكانته الأدبية أو ذكر بعض آثاره (١). .

وقد ولد ابن شرف فى مدينة القيروان فى أواخر القرن الرابع ، عام تسعين وثلاثمائة، وكانت القيروان إذ ذاك حاضرة العلوم والفنون ، فنشأ ابن شرف كما ينشأ طلاب العلم فى عصره .. حتى أخذ عن الأعلام أمثال أبى الحسن القابسى ، وأبى إسحق ابراهيم الحصرى القيروانى ومحمد بن جعفر القزاز وغيرهم رجال الأدب واللغة ..

* وظهر نبوغ ابن شرف وتجلت موهبته الأدبية ، فالتحق بديوان أمير إفريقية المعز بن باديس الصنهاجى ، وفى هذا الديوان بدأت صلة ابن شرف بالكثير من الكتاب والشعراء والنقاد، أمثال على بن أبى الرجاء ، وأبى الحسن بن رشيق «صاحب العمدة» ومحمد بن حبيب القلانسى وغيرهم من مشاهير الأدباء فى عصره ..

* وظل ابن شرف فى ديوان المعز ، إلى أن سقطت القيروان سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، فى أيدى عرب الصعيد ، ففر المعز إلى المهدية واتخذها دار ملكه ، وتبعه

---

(١) انظر فوات الوفيات ٢/٢٠٤ والوافى بالوفيات ٣/٩٦ وبغية الوعاة ٤٧ ومعالم الايمان ٣/٣٩ . وارشاد الاديب ٧/٩٦ . ومسالك الابصار ١١/٤٣ . والاعلام لابن قاضي شهبة .

ابن شرف فأقام معه بالمهدية فترة.. ثم رحل عنها إلى جزيرة صقلية ، فنال رعاية أميرها ..

وهنالك التقى مرة أخرى بابن رشيق ، فكانت بينهما مودة ومصافاة، بعد الهجاء والعداوة .. ثم رحل ابن شرف إلى الأندلس فتردد على ملوك الطوائف كآل عباد وغيرهم.. وسكن المرية .. وكانت وفاته بإشبيلية سنة ستين وأربعمائة.

* هذا موجز لحياة ابن شرف نرى فيه ثلاثة أطوار فى حياته : طور الاستقرار والأمن فى وطنه القيروان : وطور الإزعاج والخوف حين رحل عنها مع المعز بن باديس .. ثم مرحلة الاغتراب.. بين صقلية حينا .. ثم فى الأندلس وفيها كانت خاتمة حياته .. وليس لدينا من الأخبار مايكفى لمعرفة ملامح حياته الأدبية فى هذه الأطوار .. إلا أن التأمل فيما نقلته المصادر الأدبية من شعره يبين أن أعذب شعره وأجمله إنما قاله فى مرحلة الإزعاج أو الاغتراب — حنينا إلى القيروان وبكاء على أيامه السوالف فى ربوعها..

يقول ابن بسام :

« وسال سيل فتنة القيروان اللاعب بأحرارها المعفى على آثارها، فتردد على ملوك الطوائف بالأندلس ، بعد مقارعة أهوال ، ومباشرة خطوب طوال ، وقد نبت

شفرته وطفئت جمرته » (١) ثم يصفه فى هذه الفترة بأنه : « انتحى منحى القسطلى فى شكوى الزمان والحديث عن الفتن » .

* والحق أن ابن شرف فى مراثيه للقيروان .. لم يكن شاكياً للزمن ولا متحدثاً عن الفتن . . ولكنه كان يبكى شبابه وأحلامه ، وأيامه الزواهر فى ربوع القيروان . . التى كان الحسن والجمال طابعا لها . . فكيف انتهت إلى هذا المصير المفجع . . وهذا الخراب المفزع والظلام . . على أيدى عرب الصعيد ..

يقول ابن شرف :

آه للقيروان .. أنة شَجْو ..
من فؤاد بجاحم الحزن يَصْلَى
حين عادت به الديار قبورا
بل أقول : الديار منهن أخْلَى
ثم لاشمعة سوى أنجم تخ
طو على أفقها نواعس كَسْلَى
بعد زُهر الشماع توقد وقدا
ومتان الذبال تُفتل فَتْلاً

(١) الذخيرة ٤/١ — ١٢٣ .

والوجوه الحسان أشْرق منهن
وَيفْضلنهن معنى وشكلا (١)

* هذه زينة القيروان .. وبهاؤها وإشراق شموعها ووجوهها الحسان . . لكن ذلك كله قد زال . . حين هاجمها المغيرون الحفاة :

بعد يوم كأنما حُشر الخَلْـ ـق حفاةً به عوارىَ رَجْلى
ولهم زحمة هنالك تحكى زحمة الحشر والصحائف تتلى
وعجيج وضجة كضجيج الـ ـخلق يبكون والسرائر تُبْلَى
من أيامىَ وراءهن يتامى ملئوا حسرة وشجوا وثكلا
وثكالى أراملا حاملات طفلة تحمل الرضاع وطفلا

* فياهول المأساة التى يصورها ابن شرف .. فى ذلك الهجوم الغادر على القيروان . . إنه يحاول إبراز صور الثكل والحسرة فى أكثر من موقف .. فالأيامى وراءهن يتامى .. والثكالى الأرامل حاملات أطفالهن ..

بل هذه الحسناء المحصنة التى كانت من قبل فى ستر وحفاظ .. ما بالها قد عرضت على الناس عرضاً فى أطمارها البالية كأنها أكفان !

(١) الذخيرة ٤/١/١٩٧٧ .

وحصانٍ كأنها الشمس حسناً
كفنتها الأطمار نجلاء كَحلاَ
فات كرسيها الجلاء فأضحت
فى ثياب الجلاء للناس تُجْلىَ !

فانظر كيف شتت هؤلاء فى الفيافى والقفار ...

هاربين يبتغون العدل :

حارفيهم زمانهم وأولوا الأم
ر ففروا يرجون فى الأرض عدلا
تركوا الربع والأثاث ومايثـ
قل لا حامل من الناس ثقلا
نادبات.. عفراء تُسْعد سُعدى
وسعاد تجيب بالنوح جُمْلاَ !
ليس منهن من يودّع جارا
لا ولا حُرمة تشيّع أهلا

لكن أحزانهم وهمومهم لاتزول بهذا الهرب ...
بل يواجهون فى مسيرهم فى الأرض ما هو أشد وأنكى :

فإذا القَفرْ ضمهم فَوّقَ الده
ر لهم غير ذلك النبل نَبْلاَ !

من ثعابين حاملين نيوباً
عصلا ذابلا . ونبلا ونصلا
وشياطين راحين يلاقو
ن بجون الفلا مساكين عُزْلاَ

فهؤلاء قطاع الطريق يذيقون هؤلاء الهاربين من الحور ألوان الخسف والبغى .. فإن نجا منهم أحد واجتاز تلك العقبة .. فإن أمامه من الأهوال ما يصفه ابن شرف :

فإذا نجت المقادير منهم
راحلا بالخلاص يحمل رحلا
ليس يلقى إلا امرأ مستطيلا
طالبا عنده حُقودا وذَحْلاَ
فترى أشرف البرية نفساً
ناكساً رأسه يلاطف نذلا !
مزقوا فى البلاد شرقاًوغرباً
يسكبون الدموع هطلا ووبلا

ويختم ابن شرف قصيدته الحسرى بأمله فى أن يعود إلى القيروان التى أطال البكاء عليها شجوه :

ليت شعرى هل عودة فى الغيـ
ـب إلى ما أطل شجوى أم لا

ولولا ان ابن شرف قد ذاق من هول التشريد والمحنة ما ذاق هو وأهله .. لما بلغت أشعاره الراثية للقيروان ما بلغت من شجو وتأثير .. فهو يحدثنا عن محنته وأطفاله فى هذه الخطوب الدامية فيقول : (١)

بعد خطوب خطبت مهجتى
وكان وَشْك البين إمهارها
ذا كبد أفلاذها حولها
قسّمت الغربة أعشارها
أطَافل ما سمعت بالفلا
قَطّ .. فعاينت الفلا دارها!
ولا رأت أبصارها شاطئاً
ثم جلَتْ باللجّ أبصارها
وكانت الأستار آفاقها
فعادت الآفاق أستارها!
ولم تكن تعلو سريرا علا
إلا إذا وافق مقدارها
ثم علَتْ كلّ عَثُور الخطا
ترمى بها الأرض وأحجارها

(١) الذخيرة ٤/١/١٨٠ .

ولم تكن تلحظها مقلة ..
لو كحّلت الشمسُ أشفارها
فأصبحت لا تتقى لحظة
إلا بأن تجمع أطمارها

* إنها صورة تبلغ الغاية فى بيان المفارقة بين العز الغابر والذل الحاضر ..

فهولاء الأطفال ما سمعوا من قبل بالصحراء ... فإذا هم يجدون الصحراء دارهم ..

ولا رأوا شاطئ بحر من قبل .. فإذا لجج البحار تحيط بهم .. وكانوا فى بيوتهم تحيطهم الأستار فإذا الآفاق المترامية أستارهم ..

ولم يكونوا يركبون سريرا إلا إذا وافق مقدارهم . فاذا هم يركبون الدواب التى تعثر فى خطاها ترمى بهم الآفاق وتخطو فوق الطرق غير المعبدة . ولم يكن يلحظهم أحد . . فاذا هم لايتقون العيون إلا بجمع الأطمار فوق أبدانهم ..

والحق أنها محنة قاسية .. لم يملك أمامها ابن شرف عزاء.. وداء عضال لم يجد له دواء ..

وقد زاد من هولها إحساسه بأنه لايستطيع مواساة صغاره الذين فأجأتهم النقمة بعد طول النعمة :

كأنى وأفراخى إذا الليل جَنّنا
وبات الكرى يجفو جفونا ويَطْرقُ

حمائمُ أضْلَلْنَ الوكور فضمها
تجانسها.. حتى تراءى المفرّقُ

إذا أفزعتهم نَبْوة زاحموا لها
ضلوعى حتى ودّهم لو تفتّقُ

ويصغر جسمى عن جميع احتضانهم
فيثبت ذافيه وذاعنه يزهق

كأنهم لم يسكنوا ظل نعمة
لها بهجة ملء العيون ورونق

إلى أن غَدوْا فِنّ الفيافى فتارة
تباع وفى بعض الأحايين تعتق

وطورا على موج البحار كأننا
قذى قد وثقنا أننا ليس نغرق

ونحن نفوس تسعة ليس بيننا
وبين الردى إلا عُوَيْد مُلَفق (١)

---

(١) المصدر السابق .

إنها صورة معبرة حقاً عن التشريد والفزع .. فأطفاله كالحمائم التي يضمها الوكر في الليل .. فإذا طلع الصباح تفرقت .

فاذا أحسوا الخطر .. تزاحموا حول ضلوعه يحتمون به .. حتى تكاد أن تتمزق .. وهو لا يستطيع أن يحتضنهم جميعاً .. لصغر جسمه وكثرة عددهم ... فيثبت بعضهم حوله ... ويتفرق البعض الآخر ... وأين هذا مما كانوا فيه من قبل من النعمة ذات البهجة والرونق .. فهاهم قد أصبحوا أسرى الفيافي .. فتارة تمسكهم صحراء .. وأخرى تعتقهم .. وطورا على أمواج البحار كأنهم قذى فوق الأمواج .. يطفو فوق السطح .. وليس بينهم وبين الموت إلا عود من الخشب لايضمن النجاة لراكبه ..

* وظل ابن شرف يعلق بصره بالقيروان .. وهو في ظلال محنته واغترابه .. يتذكر أيامه بها .. ويتحسر على ما نزل بها من ظلمة وخراب بعد الأنس والنضرة :

يا قيروان وددت أني طائر
فأراك رؤية باحث متأمل (١)
آهاً وأية آهة تشفي جوى
قلبٍ بنيران الصبابة مصطلي

(١) الذخيرة ٤/١/١٨١ .

أبْدت مفاتيح الخطوب عجائباً
كانت كوامن تحت غيب مُقْفَلِ
زعموا ابنَ آوى فيك يَعْوى والصدى
بذراك يصرخ كالحزين المثكل

* وكيف يعوى فيها ابن آوى .. ويصرخ فيها الصدى حزينا .. وقد كانت من قبل زينة الدنيا ، غاصة بالحياة والحركة فى أسواقها وشوارعها :

يا « بيدروطة » والشوارع حولها
معمورة أبدا تغص وتمتلى
يا أربعى فى القطب منها كيف لى
بمعاد يوم فيك لى ومن اين لى ؟
يا لو شهدت إذا رأيتك فى الكرى
كيف ارتجاع صباى بعد تكهُّلِ ..

ومهما عوضه الدهر بالإحسان .. فلن ينسى ابن شرف حسرته على القيروان :

لا كثرة الإحسان تُنْسِى حسرةً
هيهات تذهب علة بتعلّل !
« لو كنت أعلم أن آخر عهدهم
يوم الرحيل فعلتُ ما لم أفعل »

والبيت الأخير تضمين ... وهو من شعر جرير..

إن مقارنات ابن شرف بين عهد القيروان الزاهر كما نشهده فى ظل دولة المعز بن باديس .. وحالها الكئيب بعد تخريب عرب الصعيد لها .. يثير كوامن الأسى وينشر فى القلوب ظلال الحسرة .

استمع اليه يقول (١) :

كأن الديار الخاليات عرائس
كواسد قد أزْرَتْ بهن الضرائر
وتُنْكِر بقياها الأسرَّة حسَّرا
عواطل لاتفشى لهن السرائر
إذا أقبل الليل البهيم تمكنت
بها وحشة منها القلوب نوافر
ولا سُرج إلا النجوم .. وربما
تغطت فسدت جانبيها الدياجر
ويمتد خُمْر الصوت فيها وربما
تجود مرارا بالكلام المقابر!
فلو نطقت ماكان أكبر نطقها
سوى قولها أين الخليط المعاشر؟

---

(١) الذخيرة ٤/١/٣٨٢ .

ألا قمر إلا المقنَّع فى الدجى ؟

فأين اللواتى ليلهن المعاجر !

ألامنزل فيه أنيس مخالط

ألا منزل فيه أنيس مجاور ..

* فأى تفجع على مدينة خربت أشد من هذا التفجع .. فالديار المقفرة كالعرائس الكواسد .. والأسرة المعطلة تنكر بقاءها على هذا الحال .. ولا مصابيح إلا النجوم.. فإذا غطاها الغمام أطبقت الظلمة .. وأصداء الأصوات الموحشة فيها تمتد .. والمقابر تتكلم .. تسأل أين الخليط المعاشر ؟ وأين الحسان االلائى كن كالأقمار إلا أن ليلهن المعاجر (١). . ألا من أنيس مخالط أو مجاور ؟

إنه وفاء من ابن شرف لمدينة القيروان .. وأسى على ماضيها الذى ولى كالحلم الجميل .. لكن الشاعر يتحير أمام تعليل أسباب هذا البلاء :

ترى .. سيآت القيروان تعاظمت

فجلت عن الغفران والله غافرُ ؟

تراها أصيبت بالكبائر وحدها ؟

ألم تلك قِدْماً فى البلاد الكبائرُ ؟

---

(١) المعاجر : ثياب يمنية .
والمراد أن هذه الثياب كالليل الذى يحيط بالاقمار ، من الحسان .

وبهذا التساؤل يكشف ابن شرف عن رفضه لفكرة أن ما نزل بالقيروان إنما هو انتقام من أهلها .. وجزاء على ما ارتكبوا من موبقات .. أو ما كان فيهم مع حياة الترف والرفاهية من غشيان لبعض الكبائر..

إنه يرى أن ذنوب القيروان تدخل فى دائرة الغفران فالله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً ..

أما الكبائر.. فقد كانت قديماً فى بلاد كثيرة . . فكيف خصت القيروان وحدها بالعقاب ؟

ولهذا يعلق ابن بسام على هذين البيتين بقوله : « ضجر أبو عبد الله ! عفا الله عنه »(١)

لقد رحل عنها قاطنوها .. وكشفت الأستار عنهم وقد كانوا من قبل فى ستور وأستار :

ترحّل عنها قاطنوها فلا ترى
سوى سائر أو قاطن وهو سائرُ
تكشّفت الأستار عنهم وربما
أقيمت ستور دونهم وستائر
فياليت شعر القيروان مواطنى
أعائدة فيها الليالى القصائر . . ؟

لقد أجاد ابن شرف فى بكاء مدينته ..وأضاف إلى

الشعر العربى فى هذا الغرض ألحاناً شجية وصورا محركة للمشاعر .. تكشف عن صدق الانتماء إلى ربوع الصبا.. بحيث لا يجد عنها عوضاً .. ولا يستبدل بها بلدا ..

ويدلنا على ذلك أن ابن شرف أقام حينا بالمهدية مع المعز بن باديس .. ثم رحل عنها إلى صقلية .. ثم نزح إلى الأندلس .. وهو فى كل ذلك يعلق أمله بالرجوع إلى القيروان .. بحيث يعود إليه شبابه إذا رآها فى منامه .. ويتمنى أن لو كان طائرا فيطلع إليها ليرى ما أصابها ..

* وحين أراد ابن شرف الرحيل إلى الأندلس استنهض رفيقه فى الديوان ابن رشيق ليصحبه فى تلك الرحلة ، فتردد ابن رشيق وأنشد :

مما يزّهدنى فى أرض أندلس
أسماء مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

وكان ذلك زمن ملوك الطوائف .. فأجابه ابن شرف على الفور :

إن ترملك الغربة فى معشر
قد جُبل الطبع على بغضهم
فدارِهم ما دمتَ فى دارهم
وأرضِهم ما دمت فى أرضهم(١)

* وقد كان ابن رشيق أصوب مسلكا . . فى أن يتأى عن البلد الذى لايحس فيه راحة قلبه . . أما ابن شرف فقد رأى أن لا فرق بين اغترابه واغتراب . . فما دام قد نزح عن موطنه . . فهو يعيش فى كل بلد بالمداراة واصطناع المودة . . وهو موقف غير محمود ، لا تحمل عليه إلا الضرورة الملجئة . .

وأى فارق فى ديار الإسلام بين المغرب والأندلس ولماذا اتضحت عند ابن شرف فكرة الأرض والدار . . أو الوطنية الإقليمية الضيقة . . ونأت عنه فكرة دار الإسلام التى هى وطن لكل مسلم مهما كان عرقه أو لونه؟.

(١) معجم الادباء ١٩/٣٨ .

ابن شرف الناثر

* اشتغل ابن شرف بالكتابة الديوانية . . فى القيروان . . وفى صقلية . . وفى الأندلس . .

كما عالج الكتابة الأدبية فى كتبه ومقاماته . . وهو وإن كان يلتزم السجع إلا أنه قريب المأخذ جميل الاختيار لمفرداته . . لا سأم فيه ولا تكلف . .

يقول فى مقدمة كتابه المترجم بأعلام الكلام (١) : « قد أطلت الوقوف بالعكوف على غير ما تصنيف فى شتى الأنواع ، فلم أرها إلا ولدا عن والد ، وطارفا عن تالد ، فلا تكاد تريك غريبة . ولا شاردة إلا منقولة : « حدثنى فلان وسمعت عن فلان » والمؤلفون قصاص بأقلامهم وإن لم يقصوا بكلامهم ، وقد تكررت تواليفهم على الأبصار او الأسماع ، والمكرر مملول بالإجماع ، وللنفس صبابة بالغرائب ، وإن لم تكن من الأطايب ، لانفرادها عما سئمت القلوب وتجافت به الجنوب ، إلا أن الابتداع والاختراع بينهما وبين الاستطاعة حجاب ، وقد كنت حاولت منه ما لم أسبق اليه ، ولم أجعل سوى

---

(١) الذخيرة ٤/١/١٤٠ .

ناظرى معينا عليه ، فصنفت الكتاب الملقب بأبكار الأفكار ، يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال مما عزوتها إلى من لم يحكها ، وأضفت نسجها إلى من لم يحكها ، قد طرزت بلمح الجد والهزل ، وحسنت بمقابلة الضد للمثل ، ليس فى ذلك كله رواية رويتها عن قديم ولا جديد ، ولا حدثنى بها قريب ولا بعيد »..

وفى هذا النص يبدو ضيق ابن شرف بمنهج الرواية والنقل فى الأدب . . ذلك المنهج الذى جعل من المؤلفين قصاصاً بأقلامهم .. كهؤلاء القصاص الذين كانوا يحدثون الناس بالغرائب والحكايات المتوارثة . .

ولهذا فقد نزع ابن شرف إلى التجديد والابتكار فى كتابه الذى سماه أبكار الأفكار . . ثم فى كتابه الذى وسمه بأعلام الكلام . .

وانظر إلى اقتداره فى انشاء مائة نوع من المواعظ والأمثال والحكايات .. من غير اعتماد على رواية ولاجنوح إلى نقل . .

« إن ذلك آية التمكن من فن الكتابة . . وامتلاك زمام الخيال الأدبى فيما أنشأه من حكايات قصار وطوال . . وقد

كان ابن شرف ميالا إلى كتابة المقامات .. في عصر كانت المقامات فيه فناً مستملحا .. إذ نشأت في القرن الرابع الهجرى على يد بديع الزمان الهمذانى الذى حدد لهذا اللون الأدبي خصائصه ..

وقد صرح ابن شرف بمحاكاته لبديع الزمان إذ عاش ابن شرف حياته الأدبية في القرن الخامس ، ولهذا فقد عالج فن المقامة .. وأعجب بهذه الطريقة التى استخدمها في رسائل الانتقاد التى سنعرض لها في جانب النقد عنده .. (١)

وقد أورد ابن بسام نموذجاً من مقامات ابن شرف قال فيه : (٢)

« حدثنى الجرجانى قال : كان فتى بجرجان ، من أبناء الأقيال ، قد جمع إلى النهاية في المال الغاية من الجمال ، وكان مألفا للأدباء ، ومأوى للغرباء ، ورزقا للفقراء ، فلا يخلو منزله من أهل الإعدام ، فإنى لعنده في بعض الليالى ، إذا استؤذن عليه لضرير فقير ، فأمر بإكرامه وإطعامه ، فلما فرغ من شأنه استدعاه إلى إيوانه ، فدخل

---

(١) وذلك في مقدمة رسائل الانتقاد التى سنعرض لها بعد

(٢) الذخيرة ٤/١/١٦٥ — ١٦٧ .

علينا رجل شيخ ، وافر السبال ، قد عمه البياض بالكمال مطموس العينين ، مسترخى الحاجبين ، قد قلحت هامته ، وركعت قامته ، وقصرت مسافة خطاه ، وثقل جسمه على عصاه ، فسلم بصوت ضئيل ، ودعا بلسان ثقيل ، وأقبل يذكر شبابه ، ويتذكر أحبابه ، وينوح على سالف زمانه ، ويندب ثقات إخوانه ، فرق له الفتى فأدناه ، حتى أجلسه على يمناه ، وصبره وسلاه .. »

وتمضى المقامة فى أحداثها .. حتى تظهر حقيقة ذلك الشيخ الفانى .. وما يخفيه فى نفسه من سيئ الأمانى .. وبهذا نجرى ابن شرف على اتخاذ المقامة أداة لتصوير أحوال المجتمع والكشف عن خباياه .. كما صنع الحمذانى ، والحريرى من قبل ..

لكن أسلوب ابن شرف فى هذا اللون من النثر الفنى يبدو قوياً متأنقاً ، ويكشف عن وفرة فى المفردات وحرص على الجزالة ..

ولابن شرف فصول قصار فى الوصف .. وصف بها الشخصيات العامة فى صورتها المثلى .. كالقضاة والولاة والقواد والزهاد .. وكأنها نماذج تحتذى فى التعبير الأدبى ..

فى وصفه للقاضى العادل يقول (١) :

« قاض يشهد له عدله ، أن غله سريع حله ، يقسم نظره بالقسطاس بين جميع الناس ، حفظ رسالة عمر ، وعمل فيها بما نهى وأمر ، لا يبيع القضايا بالهدايا يعشى عن الرشى ، ينام الخصمان وهو يقظان ، إن عجل فعن استدلال وإن عجز فلتأمل إشكال ، سريجى الإجابة ، عمرانى الإصابة ».

ويبدو أثر الثقافة الدينية فى هذه السطور القلائل . . فهو يشير بقوله : « أن غله سريع حله » إلى ما جاء فى الحديث الشريف أنه يجاء بالوالى يوم القيامة مغلولا لا يفكه إلا العدل . .

ويشير بقوله : حفظ رسالة عمر . . إلى رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى القضاء التى وجهها إلى أبى موسى الأشعرى . . وتعد دستورا للقضاء فى الإسلام . . ويشير بقوله سريجى الإجابة . . إلى ما أثر عن ابن سريج من حسن الجواب لعله يشير إلى عمران بن حطان (٢) فى قوله عمرانى الإصابة . .

---

(١) الذخيرة ١٤٦/١/٤ .

(٢) تابعى . وقيل انه صحابى .

أخرجله البخارى وأبو داود . قال عنه المرزبانى : شاعر مفلق كان من الخوارج ثم ثاب . (الاصابة ٣٠٢/٥) . تحقيق البجاوى .

ومن نثره الأدبي قوله يصف الزهاد (١) :

« زهاد تركوا العرض وأصابوا الغرض ، اقترحوا القنا ، واطرحوا الغنى ، رفضوا المزايل وطلبو الطايل ، وأعرضوا عما يبيد ، وأقبلوا على ما يفيد ، . تركوا ذلك لمن تركوا وقنعوا بأقل ما ملكوا، وجعلوا الزاد إلى الجنة الأنة بعد الأنة ، وظمأ الهواجر في شهر ناجر ، فكروا فبكروا ، وعملوا فسلموا من العقال ، وتركوا أعناقاً لحمل الأثقال ، رجوا فنجوا، وبنوا فعلوا ، ومهدوا فرقدوا، وعملوا فوجدوا » .

وهي فصول تعبر عن الطابع الأدبي للنثر في هذا العصر. : فقد كان السجع دلالة على التمكن ، وجنوحاً إلى الزينة وكان التفاوت بين الكتاب في القدرة على التخيل ، وفي توليد المعاني ، والمقابلة بين الصور..

وابن شرف بهذا المقياس كاتب أدبي مجيد ، بدليل حظوته في دواوين الولاة الذين عمل معهم . ووقوفه موقف الند لابن رشيق الذي عرف بكتاب العمدة ، أكثر مما عرف بغيره ..

● □ ●

---

(١) المصدر السابق

ابن شرف الناقد

يقيت لابن شرف محاورات نقدية ، فى رسالة صغيرة تسمى رسائل الانتقاد .. وبهذا الاسم نشرها الأستاذ حسنى عبد الوهاب فى تونس فى مجلة المقتبس ، عن نسخة تونسية فى ستين صفحة . قال عنها إنه يظهر من خطها أنها كتبت فى القرن السابع ، وقد عارضها على نسخة مكتبة الأسكوريال فأتمها منها ..

لكن مكتبة الخانجى بالقاهرة قد نشرت هذه الرسالة سنة ١٣٤٤هـ ١٩٢٦م بعنوان « أعلام الكلام » عن نسخة مخطوطة محفوظة بمكتبة طلعت بدار الكتب المصرية كتب عليها : « كتاب مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد ، تأليف الإمام البارع الماهر أبى عبيد الله محمد بن شرف القيروانى ، على لسان أبى الريان ، الصلت بن السكن بن سلامان ، وهو أعلام الكلام ، رحمهما الله تعالى وأنزلهما غرف الجنان بمنه وكرمه » .

وقد كتبت هذه النسخة فى القرن العاشر الهجرى بخط المصطفى بن محب الدين الشافعى ، برسم بهرام أفندى مقابل الدفاتر السلطانية بالشام المحروس » .

وقد أخطأ من كتب على هذه النسخة من رسائل الانتقاد : « أعلام الكلام » لأن أعلام الكلام إنما هو كتاب آخر ، قال عنه ياقوت : « وأعلام الكلام مجموع فيه فوائد ولطائف وملح منتخبة » (١)

وقد ذكرنا جزءا من مقدمة هذا الكتاب ، كما أوردها ابن بسام . . مما يدل على أنه كتاب آخر غير رسالة الانتقاد .. ولهذا ذكر ياقوت هذه الرسالة بعد اشارته إلى أعلام الكلام فقال :

« ورسالة الانتقاد وهى على طراز مقامة ، نقد فيها شعر طائفة من شعراء الجاهلية والإسلام »(٢) وقد جاء جزء كبير من هذه الرسالة فى ترجمة ابن بسام لابن شرف .. وأوردها ابن بسام على أنها مقامة نقدية ..

ومن هنا وجب التنبيه إلى أن ارسالة الانتقاد غير أعلام الكلام ، وأن من الخطأ وضع هذا الاسم عليها ، كما جاء فى الطبعة المشار اليها نقلا عن هذه النسخة المتأخرة ، الموجودة فى مكتبة طلعت ..

---

(١) معجم الادباء ٤٣/١٩ .

(٢) المصدر السابق .

رسائل الانتقاد :

هى محاورات نقدية أجراها ابن شرف مع شخصية متخيلة أسماها أبا الريان الصلت بن السكن من سلامان ، ايثارا لأسلوب المقامة الذى يقوم على الراوى الذى يقص حكايات البطل ..

وقد كان ابن شرف فى هذه المحاورات متأثرا بنماذج أدبية سابقة ، كما صرح بذلك فى قوله :

« واحتذيت فيما ذهبت إليه ووقع تعريضى عليه ، من بث هذه الأحاديث : ما رأيت الأوائل قد وضعته فى كتاب كليلة ودمنة ، فأضافوا حكمه إلى الطير الحوائم ، ونطقوا به على ألسنة الوحش والبهائم ، لتتعلق به شهوة الأحداث ، وتستعذب بثمره ألفاظ الحداث ، وقد نحا هذا النحو سهل بن هارون الكاتب فى تأليف كتاب النمر والثعلب ، وهو مشهور الحكايات بديع المراسلات ، مليح المكنايات ، وزور أيضا بديع الزمان الحافظ الهمذانى ، وهو الأستاذ أبو الفضل أحمد بن الحسين ، مقامات كان ينشئها بديها فى أواخر مجالسه ، وينسبها إلى راوية رواها له يسميه عيسى بن هشام ، وزعم أنه حدثه بها عن بليغ

يسميه أبا الفتح الإسكندرى ، وعددها فيما يزعم رواتها عشرون مقامة ، إلا أنها لم تصل هذه العدة إلينا ، وهى متضمنة معانى مختلفة ، ومبنية على معان شتى غير مؤتلفة، لينتفع بها من الكتاب والحاضرين من حرفها من هزل إلى جد ، ومن ند إلى ضد ، فأقمت من هذا النحو عشرين حديثاً ، أرجو أن يتبين فضلها ، ولا تقصر عما قبلها (١)».

وإذن فقد كان مقصد ابن شرف أن يجعل من هذه الرسائل نسجاً على منوال مقامات بديع الزمان الهمذانى . . ، محاكاة لمن سبقوا فى إجراء الحديث على ألسنة الطير والبهائم .. سعيا إلى جذب الانتباه وإحداث التشويق استمالة للناشئة .. وتجميلا للأساليب ..

ولكن الحقيقة أنه ليس فى محاوراته هذه شبه بما أشار اليه من قصص الحيوان والمقامات . . فليس فيها رمز ولا أحداث ولا حكم .. وكل ما فيها من الأسلوب القصصى : السؤال والجواب .. بل ليس فيها من الحوار ما يشوق أو يثير التطلع .. ونعجب إذ يذكر ابن شرف أن مقامات الهمذانى تبلغ فيما ذكر رواتها عشرين مقامة ، وأنها لم تصل هذه العدة فيما بلغه ؟

(١) رسائل الانتقاد « اعلام الكلام خطأ » ط الخانجى ص ١٢ — ١٤

بينما يبالغ المؤلفون فى عدد المقامات حتى ليذكر الحصرى — وهو معاصر لابن شرف — أن مقامات الهمذانى تبلغ أربعمائة (١) .

وكذلك يذكر الثعالبى أن مقامات الهمذانى أربعمائة (٢) فلعل ابن شرف لم يطلع على هذه المقامات تامة . . ولعل لاغترابه ومحنته أثرا فى حرمانه من المراجعة والتثبت ..

كما نعجب مما ذكره ابن شرف فى هذه المقدمة : من أنه أقام على نحو المقامات عشرين حديثا . .

ولا نجد فى هذه الرسالة الوجيزة غير عدد قليل من الأسئلة التى وجهها إلى أبى الريان .. وإجابات طويلة من أبى الريان عليها . .

فاذا أحصينا المرات التى وردت فيها جملة : « قال أبو الريان » فى هذه الرسائل المطبوعة وجدناها لا تتجاوز العشر أما جملة : « قلت لأبى الريان » فإنها لاتتجاوز الخمس فهل يدل ذلك على أن هذه الرسائل المطبوعة ليست كاملة .. وربما كانت ملخصة عن الرسائل الأصلية التى تحتوى على

---

(١) زهر الاداب ١/٢٧٣ تحقيق الدكتور زكى مبارك ويرى الدكتور زكى مبارك أنها خمسون مقامة .
(٢) يتيمة الدهر للثعالبى ٤/١٦٨ .

هذه الأحاديث العشرين . . التى أشار ابن شرف إلى أنه صاغها على مثال المقامات فى عددها الذى بلغه ؟

أم أنه قد بنى هذا العدد على تقسيم له فيما ورد بها من سؤال وجواب . . ؟

إن الاحتمال الأول هو الذى يرجح فى الظن . . وهو الذى يصدق ما جاء فى مقدمة هذه الرسائل .

* أما الراوية الذى جعله ابن شرف محاوراله وهو « أبو الريان » فقد وصفه فى مقدمته بأنه « كان شيخاً هما فى اللسان ، وبدرا تمًّا فى البيان قد بقى أحقاباً ولقى أعقاباً ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فامتحنا من علمه بحرا جاريا ، وقدحنا من فهمه زندا واريا ، وأدرنا من بره طرفاً ، واجتنينا من ثمره طرفاً ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل وغفلة الزمان تهتبل » .

ويبدو أن ابن شرف قد كتب هذه الرسائل فى أواخر عمره ، وهو غريب نازح عن وطنه ، ولعله كتبها فى صقلية ، إذ يقول :

« ولعمرى ما أشكر من نفسى ، ولا أثنى على شىء من حسى إلا ظفرى بالأقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة من قلبى ، وثلمته صعقات الفتنة من لبى ،

وقطعت أهوال البر والبحر من خواطرى ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزى وبصائرى (١) » .

الجانب النقدى فى هذه الرسائل :

كتب ابن شرف رسالته هذه فى القرن الخامس الهجرى، بعد أن استقر النقد الأدبى عند العرب على قواعد ومناهج جعلت منه علما متميزا ، بعد أن كان فى نشأته لمحات تقوم على التذوق لا تعرف التعليل أو التحليل ..

فقد «كان النقد فى القرن الرابع خصباً جدا ، كان متسع الآفاق ، متنوع النظرات ، معتمدا على الذوق الأدبى السليم ، مؤتنسا بمناحى العلم فى الصورة والشكل لا فى الجوهر والروح ، إن حلل فبذوق سليم وان عال فبمنطق سديد ، وان عرض لفكرة أتى على كل ما فيها » (٢) .

فماذا نجد من الجديد فى رسائل الانتقاد لابن شرف وقد كان عصره يموج بالأدباء والنقاد أمثال ابن رشيق والحصرى فى المغرب وأضرابهم فى المشرق .. لقد أراد ابن شرف أن يبدى أحكاماً موجزة على مشاهير الشعراء فى الجاهلية والإسلام ، ولم يشأ أن يجعل من رسائله

---

(١) رسائل الانتقاد ص ١٤ (ط الخانجى) .

(٢) تاريخ النقد الادبى عند العرب ص ١٤١ للاستاذ طه أحمد ابراهيم . ويراجع النقد المنهجى عند العرب للدكتور محمد مندور (٥)

تصنيفاً لطبقاتهم فقد سبقه إلى ذلك ابن سلام وابن قتيبة كما لم يرد أن يكتب عن تاريخهم وأخبارهم . . فقد عنى بهذا اللون كثيرون.. ولم يكن من قصده أن يستقصى الأصول الفنية لنقد الشعر لفظاً ومعنى . . كما صنع معاصره ابن رشيق فى كتابه العمدة .

بل أراد أن يسجل خواطره الموجزة عن هؤلاء الشعراء .. وأحكامه عليهم التى علل بعضها .. وترك الآخر دون تعليل .. وملاحظات سريعة فى منهج النقد .

٥ وقد بدأ ابن شرف رسائله هذه بسؤال أبى الريان عن منازل الشعراء فى الجاهلية والإسلام ، ومذهبه فيهم ومذاهب طبقته فى قديمهم وحديثهم . فقال له أبو الريان :

« الشعراء أكثر من الإحصاء ، وأشعارهم أبعد من مشقة الاستقصاء » .

فقال ابن شرف : « لا أعنتك بأكثر من المشهورين ولا أذكر رأيك إلا فى المذكورين » .

أما هؤلاء المشهورون فقد بلغوا أكثر من سبعين شاعرا ينتمون إلى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، والعصرين الأموى والعباسى ، وأكثرهم من شعراء المشرق ، وقليل منهم من شعراء المغرب ..

فمن العصر الجاهلى تناول ابن شرف فيمن تناول : امرأ القيس وقد كنى عنه بالضليل ، وطرفة بن العبد ، وكنى عنه بالقتيل ، ولبيد بن ربيعة وعبيد بن الأبرص ، والنابغة ، وابن حلزة ، والأعشى . وقد جمع فى سؤاله عن النابغة كل من سمى بهذا الاسم ، وكذلك صنع فى إشارته إلى الأعشى فقال : « والنوابغ والعشو » (١).

أما فى الإجابة فقد أشار إلى زياد النابغة ، وهو جاهلى ، وإلى أبى ليلى الجعدى وهو مخضرم (٢) .

وأما فى الإجابة عن العشى فقد أشار إليهم بإجمال وخص منهم الأعشى الكبير ، فقال : « كلهم شاعر ولا كميمون بن قيس (٣) » .

كما ذكر من شعراء الجاهلية الأسود بن يعفر .

ومن المخضرمين ذكر : حسان بن ثابت ، وعامر ابن الطفيل وزيد الخيل ، وأبا ذؤيب الهذلى ، وعامر ابن الطفيل ، وصخر الغى ودريد بن الصمة .

ومن الأمويين أشار إلى جميل وجرير والفرزدق

---

(١) رسائل الانتقاد ص ١٨

(٢) انظر المؤتلف والمختلف للآمدى ص ٢٩٣ . تحقيق عبد الستار فـــــراج

(٣) رسائل الانتقاد ص ١٨ .

والأخطل والكميت وذا الرمة والطرماح والراعى النميرى.

ومن العباسيين : أشار إلى أبى نواس ، وصريع الغوانى ، وحبيب الطائى ، والوليد بن عبيد البحترى وابن المعتز ، وابن الرومى ، والمتنبى ، وديك الجن . .

ومن الأندلسيين ذكر ابن عبد ربه وابن هانئ . ومن المغاربة : على بن أبى العباس الإيادى التونسى ، وأحمد ابن دراج القسطلى .

وهنالك شعراء أشار إليهم ابن شرف وليسوا من المشهورين فى تراجم الشعراء ، منهم ابن جدار المصرى.

وآخرون نسبهم إلى قبائلهم أو بلادهم ، كشعراء فزارة ومفلقى بنى زرارة ، وشعراء تغلب وشعراء يثرب.»

ولم يجعل ابن شرف هؤلاء الشعراء الذين أطلق عليهم أحكامه طبقات .. وإن كان ترتيبهم فى الذكر يشعر بالتفضيل.

ونستطيع أن نصنف الجانب النقدى فى هذه الرسالة إلى ثلاثة أقسام :

١ — أحكام على الشعراء ، أو محاولة لبيان قدر كل منهم فى عبارة موجزة .

(١) رسائل الانتقاد ١٥ .

٢ ــ قضايا نقدية و مسائل تتصل بمنهج النقد .

٣ ــ نقد تطبيقى يكشف عن منهج ابن شرف فى تحليل الشعر والحكم عليه من خلال التذوق أو الرجوع إلى مقاييس ملحوظة .

أما أحكامه على الشعراء فقد جرى فى بعضها مجرى مؤرخى النقد من قبل . . كابن سلام وابن قتيبة . كقوله عن امرئ القيس :

« أما الضليل : فمؤسس الأساس ، و تابع بنيانه عليه الناس ، كانوا يقولون : « أسيلة الخد » حتى قال امرؤ القيس : « أسيلة مجرى الدمع » وكانوا يقولون تامة القامة وطويلة القامة وأشباه هذا ، وجيداء وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس : بعيدة مهوى القرط . وكانوا يقولون فى الفرس السابق : يلحق الغزال ويسبق الظلام (١) وأمثال هذا ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد هيكل . ومثل هذا له كثير ، ولم يكن قبله من فطن لهذا ، وبنى من بعده على هذه الإشارات والاستعارات فحسنت به أشعارهم جدا، وسلكوا منهاجها قصدا ، فتطرزت أقوالهم ، وكانت الأشعار قبلها سواذج ، فبقيت

---

(١) كذا ولعلها الظليم .

هذه جددا وتلك نواهج ، وكل شعر بعدها خلافها فغير رائق النسج وإن كان مستقيم النهج (١) » .

* فهذا المنهج من اعتبار امرئ القيس رائدا فى تعبيد الطريق للشعراء ، إذ صاغ لهم أمثال هذه الصور الجديدة فى الوصف فتابعوه عليها ، منهج مسبوق .. قال محمد ابن سلام الجمحى فى طبقاته : « فاحتج لامرئ القيس من يقدمه قال : ما قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق العرب إلى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب ، واتبعته فيها الشعراء : استيقاف صحبه ، والتبكاء فى الديار ، ورقة النسيب ، وقرب المأخذ ، وشبه النساء بالظباء والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقيد الأوابد ، وأجاد فى التشبيه وفصل بين النسيب وبين المعنى » (٢)

فقد تضمن هذا النص الأوصاف التى وصف بها ابن شرف امرأ القيس وإن كان لالتزام ابن شرف السجع أثر فى التقيد بألفاظ خاصة . أما ابن سلام فان أسلوبه المرسل قد مكنه من استيفاء المعانى التى أراد التعبير عنها .

وكذلك صنع ابن قتيبة فى حديثه عن امرئ القيس ،

---

(١) رسائل الانتقاد ١٥ ، ١٦ .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/٥٥ تحقيق محمود شاكر

فقد نقل عن أبى عبيدة أن امرأ القيس « هو أول من قيد الأوابد يعنى فى قوله فى وصف الفرس « قيد الأوابد» فتبعه الناس على ذلك. وقال غيره : هو أول من شبه الثغر فى لونه بشوك السيال فقال :

منابته مثل السدوس ولونه
كشوك السيال وهو عذب يفيض

فاتبعه الناس. وأول من قال : « فعادى عداء »

فاتبعه الناس . وأول من شبه الحمار بمقلاء الوليد وهو عود القلة . « وبكر الأندرى» والكر الحبل . وشبه الطلل بوحى الزبور فى العسيب. والفرس بتيس الحلب.. ومما انفرد به قوله فى العقاب :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً
لدى وكرها العناب والحشف البالى

شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد . وأحسن التشبيه . قوله :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقد تبعه الناس فى هذا الوصف وأخذوه ، ولم يجتمع لهم ما اجتمع له فى بيت واحد . » (١)

فهى الطريقة نفسها فى تفضيل امرئ القيس ، ووصفه بالسبق والاختراع فى الأوصاف والتشبيهات . ولكن الأمثلة التى ساقها ابن شرف قد تضمنت ما لم يتضمنه كلام ابن سلام وابن قتيبة . فهو يذكر أن امرأ القيس هو أول من قال : « بعيدة مهوى القرط » كناية عن الطول وتمام العنق . ولم أجد هذه الجملة فى ديوان امرئ القيس وإنما وجدتها فى ديوان الحماسة فى باب « مذمة النساء» قال بعضهم :

دمشق خذيها واعلمى أن ليلة
تمر بعودى نعشها ليلة القدر
أكلت دما إن لم أرعك بضرة
بعيدة مهوى القرط طيبة النشر(٢)

وقد ذكر التبريزى فى شرحه لديوان الحماسة أن هذين البيتين لأعرابى تزوج امرأة فلم توافقه فقيل له

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٨١ — ٨٣

(٢) ديوان امرىء القيس مع زياداته تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط دار المعارف بالقاهرة .

(٣) ديوان الحماسة ص ٣٨١ .

إن حمى دمشق سريعة فى موت النساء . فحملها إلى دمشق وأنشد هذين البيتين .

فهل يكون ابن شرف قد اعتمد على حفظه فى اختيار شواهده ، وقد علمنا أنه ألف هذه الرسائل إبان اغترابه ومحنته . أم لعل هذا الوصف قد ورد فى شعر منسوب لامرئ القيس ، غير ما تضمنه ديوانه ؟

● □ ●

وإذا كان ابن شرف قد سُبق فيما وصف به امرأ القيس ، لعناية النقاد من قبل ببيان منزلة امرئ القيس ، فقد كان له استقلال فى الحكم على بعض الشعراء ، يكشف عن رأى وذوق .. كقوله عن الحارث بن حلزة اليشكرى :

« وأما ابن حلزة اليشكرى فسهل الحزون ، قام خطيبا بالموزون ، والعادة أن يسهل شرح الشعر بالنثر ، وهذا أسهل السهل بالوعر ! وذلك مثل قوله :

أبرموا أمرهم بليل فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن
تصهال خيل خلال ذاك رغاء

فلو اجتمع كل خطيب سائر من أول وآخر يصفون سفرا نهضوا بالأسحار ، وعسكرا تنادى بالنهوض إلى طلب الثار ، لما زادوا على هذا ، إن لم ينقصوا منه ويقصروا عنه ، وسائر قصيدته على هذا المسلك ، شكاية وطلاب نصفة ، وعتاباً فى عزة وأنفة (١) » .

فابن شرف فى هذا التقدير لشعر الحارث بن حلزة يصدر عن تحليله الخاص لهذا الشعر الذى يكشف عن قدرة فائقة للحارث بن حلزة ، إذ استعمل الشعر فى المقام الذى لا يسهل فيه إلا النثر .. والمألوف أن الشعر يحتاج فى بيان معانيه وشرح أغراضه إلى النثر .. لكن ابن حلزة جعل الشعر يغنى عن النثر فى مقام الوصف والشكاية وابتغاء العدل ..

وقد تحدث ابن سلام فى طبقاته عن الحارث بن حلزة فى سطور معدودة تضمنت نسبه والإشارة إلى معلقته ثم قال : « وله شعر سوى هذا (٢) » .

أما ابن قتيبة ، فقد أشار إلى معلقته وأنه ارتجلها بين يدى عمرو بن هند ارتجالا .. وروى عن الأصمعى أن

---

(١) رسائل الانتقاد ١٧ — ١٨ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/١٥٢ .

الحارث بن حلزة قد أقوى فى قصيدته التى ارتجلها قال :

فملكنا بذلك الناس إذ

ملك المنذر بن ماء السماء

ثم اعتذر عنه ابن قتيبة بقوله : « ولن يضر ذلك فى هذه القصيدة ، لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة (١) » ولعل ابن قتيبة فى حديثه عن ارتجال هذه القصيدة وأنها كالخطبة قد اقترب من صلة الشعر بالنثر عند الحارث بن حلزة .. لكنه لم يصرح بما صرح به ابن شرف من كون الشعر عند ابن حلزة قد أغنى عن النثر فى الشرح والوصف ، مع ما فيه من مزية الجمال فى التصوير والإيقاع ..

● □ ●

أما موقف ابن شرف من أبى نواس ، فإنه يحمل نظرة جديدة إلى هذا الشاعر الذى فتن الناس به . . إلى حد أن ابن قتيبة قد تحدث عنه فى كتاب الشعر والشعراء حديثاً مطولا ، وأورد له العديد من شواهده المستحسنة واختراعاته العجيبة .. وفصل فى ذلك وأطال النفس . . فجاء حديثه عنه قدر حديثه عن امرئ القيس صاحب المكانة الملحوظة فى الشعر القديم . . بينما نجده قد اختصر

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/١٥٠ — ١٥١ .

القول عن كثير من شعراء الجاهلية والإسلام فى سطور أو صفحات قليلة . . أما حديثه عن أبى نواس فقد بلغ أكثر من ثلاثين صفحة من كتابه . . وهو نفس القدر الذى تحدث فيه عن امرئ القيس .

وقد أشاد الجاحظ بأبى نواس .. وفضله فى بعض أشعاره على المهلهل بن أبى ربيعة إذ قال :

« وأبيات أبى نواس على أنه مولد شاطر ، أشعر من شعر مهلهل فى إطراق الناس فى مجلس كليب (١) » كما فضل الجاحظ أبا نواس فى طردياته على شعراء البادية فى هذا الموضوع إذ قال :

« وإن تأملت شعره فضلته إلا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لايقاربونهم فى شىء ، فإن اعترض هذا الباب عليك فإنك لاتبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا(٢) »

فكيف كان قول ابن شرف فى أبى نواس بعد سبق الخصومة حول هذا الشاعر وأضرابه .. مما عرف فى النقد القديم بمشكلة القدماء والمحدثين ؟

---

(١) الحيوان ٦/٣٢٧ . تحقيق عبد السلام هارون

(٢) الحيوان ٢/٧٢ .

يقول ابن شرف :

« وأما أبو نواس فأول الناس فى خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى ، ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا فهلهل المشدد ، وبلبل المنضد ، وخلخل المنجد ، وترك الدعائم ، وبنى على الطامى والعائم .. وصادف الأفهام قد كلت ، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت ، والفصاحات قد سئمت وملت ، فمال الناس إلى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه ، فتهادوا شعره وأغلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ، وكلفوا بأضعفه ، وكان ساعده أقوى وسراجه أضوى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف ، وأغرب فذكر واستظرف ، والعوام تجار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق ، فشعر أبى نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس . وقد فطن إلى استضعافه وخاف من استخفافه ، فاستدرك بفصيح طرده ، طرفاً جذ اللسان الأول وحده ، وهو مجدود فى كثرة التظاهر ، على من غض منه بالحق الظاهر ، ليس إلا لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون ، على جمهور العوام ، لا على خواص الأنام (١) »

---

(١) رسائل الانتقاد ٢٢ — ٢٣ .

وهكذا يتبدى رأى ابن شرف فى أبى نواس ، وهو رأى جد خطير .

إذ يرى أن شعره كاسد عند « أنقد الناس » أى المحققين من النقاد.. لا يروج إلا عند العوام وأشباههم ممن تستهويه روح المجون والخفة والخروج على القواعد والضيق بالتقاليد ، أما خرم القياس الذى يشير إليه ابن شرف فلعله يريد الخروج على التقاليد الشعرية فى مطالع القصيد. .

إذ دعا أبو نواس إلى نبذ الوقوف على الأطلال واستيقاف الأصحاب وقال :

صفة الطلول بلاغة الفدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وإذا وصفت الشيء متبعا لم تخل من خطأ ومن وهم

مع أن دعوته هذه لم تلق قبولا لدى شعراء عصره
ولم يكن لها أثر فى اتجاه القصيدة العربية ، إلا أنها تعبر عن الصراع بين القديم والحديث فى العصر العباسى .

أما وصف ابن شرف لأبى نواس بأنه «ترك الدعائم وبنى على الطامى والعائم » فلعها إشارة إلى قضية عمود الشعر ، التى كانت أساس الخلاف ، فى تقسيم الشعراء إلى قدامى ومحدثين « وحول عمود الشعر وما تفرع عنه من أمور النقد ، ثارت عند قدامى نقاد العرب كل مسائل

الخصومة بين القدماء والمحدثين ، إذا أن هؤلاء المحدثين قد انحرفوا قليلا فى صناعتهم عما يقتضيه عمود الشعر من أصول (١) » .

ومن هنا يظهر اتجاه ابن شرف فى حكمه على أبى نواس ، فهو ينظر اليه بمقياس الخروج على القواعد ومخالفة القياس ، لأن ابن شرف من أنصار القديم ، ومن دعاة الحفاظ على تقاليد الشعر وقواعده الموروثة عن العرب . . ويعلل ابن شرف شهرة أبى نواس وإعجاب الناس به بأمرين :

أولهما ضعف القرائح وتراجع الملكات اللغوية والأدبية فى العصر الذى ظهر فيه أبو نواس : « وصادف الأفهام قد كلت وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت والفصاحات قد سئمت وملت » . .

ثانيهما : إعجاب الناس بالغريب لغرابته .. واحتفاؤهم بالأمور المخالفة للمألوف :

« وخالف فشهر وعرف ، وأغرب فذكر واستظرف »

وحين نناقش هذين التعليلين ، يتضح لنا أنهما ،

---

(١) النقد الادبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ص ١٧٣ .

لايستندان إلى أساس علمى سليم .. فلا يمكن القول بأن القرن الثانى للهجرة الذى عاش فيه أبو نواس يعد من عصور الضعف اللغوى الأدبى .. وربما نظر ابن شرف إلى قضية الاحتجاج بالشعر ، وكون شعر أبى نواس ومن عاصره مما لا يحتج به الرواة ولا يتخذون منه شاهدا على مسائل اللغة النحو .. لكن هذه قضية أخرى لاصلة لها بالفن الشعرى . . فشيوع اللحن فى العصر العباسى واختلاط العرب بغيرهم ، قضية تتصل باللغة والنحو ، لكن القريحة الشعرية والقدرة على التصوير مجال آخر .. لايجوز ربطه بقضيةالاحتجاج بالشعر ..

كذلك فإن شهرة أبى نواس لاترجع إلى إغرابه أو خروجه عن المألوف .. ولكن النقد الموضوعى لشعره يظهر موهبته العجيبة وقدرته على ابتكار الصور وتحليل المعانى ..

مما جعل ابن قتيبة يفرد لشواهده العجيبة العديد من صفحات كتاب « الشعر والشعراء» ويعنى بشرح معانى الكثير منها .

فكيف يرى ابن شرف أن أشعار أبى نواس لاتروج إلا عند العوام الذين هم « تجار هذه الأعلاق وأسواقهم

أوسع الأسواق » . وهل يعد الجاحظ وابن قتيبة ، من هؤلاء العوام ، الذين أعجبوا بشعر أبى نواس لما فيه من مجون واستخفاف بالتقاليد ؟.

الحق أن ابن شرف قد جعل من قضية المضمون أساساً للنظر فى شعر أبى نواس ، ولاشك أن كثيرا من الأغراض والمعانى فى شعر أبى نواس مستقبح مستنكر ، لكن الناقد إنما ينظر إلى الصياغة الشعرية ، وإلى البراعة فى التصوير والاختراع ليمكنه الحكم على منزلة الشاعر وتقدير مكانته.. وعلى هذا الأساس نظر الجاحظ وابن قتيبة إلى شعر أبى نواس ..

والعجيب أن ابن شرف يجعل من طرديات أبى نواس التى فاق فيها فصحاء البادية ، كما قال الجاحظ ، محاولة من أبى نواس لتغطية عيوب شعره المستضعف « وقد فطن إلى استضعافه وخاف من استخفافه فاستدرك بفصيح طرده .. »

فهو يقر بفصاحة طردياته .. لكنه يراها تمويها من أبى نواس ، يحاول أن يقوى به ما ضعف من شعره .. مع أنه لاعلاقة بين فصاحة الطرديات .. والضعيف أو

الملحون من شعر أبي نواس .. فهذه لاتغنى عن ذاك . . ولا تقوم معوجه!

وأخيرا فإن ابن شرف يرى أن أبا نواس « مجدود» أى ذاحظ عند الناس . . فهم لايصغون إلى من يعيب شعره ، مهما كان لديه من الدلائل القوية .. ولا يرى لذلك تعليلا : « إلا لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون على جمهور العوام ، لا على خواص الأنام » .

ومجمل القول أن ابن شرف فى حكمه على أبى نواس لم يكن ناقدا موضوعياً ، وإنما حكم عليه بمقياس الناقد المعجب بالقديم ..الضائق ذرعاً بالخروج على عمود الشعر أو التجديد فى صياغته ..

● □ ●

وبعد ذلك نجد فقرة مقحمة فى رسائل الانتقاد ، وذلك إذ يقول : « قال ابن بسام : أما صفته لأبى تمام فنصفة لم يثن عطفها حمية ، ولا تعلقت بذيلها عصبية ، حتى لو سمعها لاتخذها قبلة واعتمدها ملة ، فما لام من أدب وإن أوجع ، ولاسب من صدق وإن أقذع (١) » فما الذى

(١) رسائل الانتقاد ٢٣ .

أقحم ذكر ابن بسام هنا ، وهو صاحب الذخيرة دون شك ، إذ هو الذى أورد طرفاً من هذه الرسائل فى ترجمته لابن شرف .

وهذا تعليق من ابن بسام على حكم ابن شرف على أبى تمام ، فلعل هذه الفقرة كانت حاشية على أصل هذه الرسائل ثم أقحمها الناسخون من بعد فى أصل الرسائل . وبعدها يأتى حكم ابن شرف على أبى تمام .

ويبدو أن حكم ابن شرف على أبى تمام كان حكماً قاسياً ، بدليل أن ابن بسام يقول فى تعليقه المقحم : « فما لام من أدب وإن أوجع ، ولا سب من صدق وإن أقذع »

إن ابن شرف قد عاب على أبى تمام مذهبه فى البديع وتصنعه فى الصور ، كما عاب على أبى نواس خروجه على القواعد وولوعه بالمخالفة للمأثور ..

يقول ابن شرف : « وأما الطائى حبيب فمتكلف إلا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ، وشغله المطابقة والتجنيس ، جيد ذلك أو بيس ، جزل المعانى مرصوص المبانى ، مدحه وثناؤه ، لا غزله وهجاؤه

(١) رسائل الانتقاد ٢٣ .

طرفاً نقيض وخطتا سماء وحضيض ، وشعره علم جم من النسب ، وخصلة وافرة من أيام العرب ، وطارت له أمثال، وحفظت له أقوال، وديوانه مقرو وشعره متلو [١]»

بينما أثنى ابن شرف على البحترى أحسن ثناء ، لعدم تكلفه ، وصدق تعبيره عما فى فؤاده ، ولين قياده .. يقول :

« وأما البحترى فلفظه ماء ثجاج ، ودر رجراج ، ومعناه سراج وهاج ، على أهدى منهاج ، يسبقه شعره إلى ما يجيش به صدره ، يسر مراد ولين قياد ، إن شربته أرواك ، وإن قدحته أوراك ، طبع لاتكلف فيعيبه ، ولا عناد يثنيه ، لايمل كثيره ، ولا يستنكف غزيره ، لم يهف أيام الحلم ، ولم يصف زمن الهرم [٢] » .

وابن شرف بانحيازه إلى جانب البحترى وثنائه عليه ، بعد نقده لأبى تمام ، يكشف عن اتجاهه فى النقد — كما أسلفنا — وجهة الحفاظ والميل إلى الطبع والبعد عن التصنع وقد شغلت المفاضلة بين أبى تمام والبحترى ، الأدباء والنقاد فى عصرهما ومن بعده ، حتى ألف أبو القاسم الآمدى المتوفى عام سبعين وثلاثمائة ، كتابه الشهير

---

(١) رسائل الانتقاد ٢٣ .

(١) رسائل الانتقاد ٢٤ ، « ولم يصف » كذا ولعلها ولم يضعف .

«الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى» ، وقد أنصف الآمدى فى موازنته ، وبين فى أولها أن تفضيل أى من الشاعرين يرجع إلى الاتجاه الذى يؤثره المفضل :

« ووجدتهم فاضلوا بينهما لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما ولم يتفقوا على أيهما أشعر ، كما لم يتفقوا على أحد ممن وقع التفضيل بينهم من شعراء الجاهلية والإسلام والمتأخرين ، وذلك لميل من فضل البحترى ونسبه إلى حلاوة اللفظ وحسن التخلص ووضع الكلام فى مواضعه ، وصحة العبارة وقرب المأتى وانكشاف المعانى وهم الكتاب والأعراب والشعراء المطبوعون وأهل البلاغة . وميل من فضل أبا تمام ونسبه إلى غموض المعانى ودقتها ، وكثرة ما يورده مما يحتاج إلى استنباط وشرح واستخراج ، وهؤلاء أهل المعانى والشعراء أصحاب الصنعة ومن يميل إلى التدقيق وفلسفى الكلام (١) » .

فابن شرف ممن يفضل البحترى ، لإعجابه بمذهبه فى وضوح المعانى وصحة العبارة ووضع الكلام فى مواضعه ..

---

(١) الموازنة ١/٤ (تحقيق السيد صقر) .

وفى حديث ابن شرف عن ابن المعتز ، يبدو إعجابه بطريقته كما قال :

« ملك النظام ، كما هو ملك الأنام ، له التشبيهات المثلية والاستعارات الشكلية ، والإشارات السحرية والعبارات الجهرية، والتصاريف الصنوفية ، والطرائق الفنونية والافتخارات الملكية والهمات العلوية ، والغزل الرائق والعتاب الشائق ووصف الحسن الفائق وخير الشعر أكرمه رجالا (١) » .

وفى هذه الفقرة تبدو عبارات جديدة تلفت النظر ، كالاستعارات الشكلية والإشارات السحرية والعبارات الجهرية والتصاريف الصنوفية .

ولو أن المجال اتسع لابن شرف لشرح هذه العبارات وتعيين المراد بها لأفاد النقد الأدبى من ذلك فائدة كبرى ، لكن أسلوب السجع ، وقالب المقامة الذى التزمه ابن شرف فى هذه الرسائل ، جعله يوجز القول ويقنع بالإشارات..

وقد فطن ابن شرف فى نقده للشعراء وحكمه عليهم إلى الصلة بين الشكل والمضمون ، فتراه يأخذ على الصنوبرى أنه كان يستعمل شواذ القوافى : « وأما الصنوبرى

(١) رسائل الانتقاد ٢٤ .

ففصيح الكلام غريبه ، مليح التشبيه عجيبه ، مستعمل شواذ القوافى ، يغسل كدورتها بمياه فهمه الصوافى ، فتجلو ، وتدق ، وتعذب وترق وتحلو ، وهو وحيد جنسه فى صفة الأزهار وأنواع الأنوار (١) » .

ولعل مراده بشذوذ القوافى أن تأتى على روى غير مألوف ، فإن بعض الحروف أسهل من بعض بالنسبة للقافية .. وقد دعا النقاد الأوائل إلى مراعاة سهولة الروى .. قال ابن قتيبة بعد ذكر أبيات لاتصح فى الوزن ولا تحلو فى الأسماع : « وهذا يكثر ، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت عن اختيارك أحسن الروى وأسهل الألفاظ وأبعدها من التعقد والاستكراه وأقربها من أفهام العوام »(٢)

● ◻ ●

أما ابن الرومى فإن حكم ابن شرف عليه يجنح إلى الإعجاب .. إلا أنه يشير إلى تفوقه فى بعض الأغراض دون البعض يقول عنه :

« شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ما ليس له فى الإطراء ، فتح فيه أبواباً ووصل منه أسباباً

---

(٢) المصدر السابق .

(١) الشعر والشعراء ١/٥٠ .

وخلع منه أثوابا ، وطوق به رقاباً .. ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن ، إلا أن الغالب عليه ضعف المريرة وقوة المرة » (١)

وفى هذه اللمحة النقدية يحاول ابن شرف تصوير شخصية الشاعر لتجلية الجوانب التى كان لها أثر فى شعره .. فضعف المريرة وقوة المرة .. من الملامح المميزة لابن الرومى .. والمريرة هى العزيمة ، والمرة هى المزاج الحاد .. فكأنه أراد أن يجعل من النظر فى شعر الشاعر وسيلة لتحليل شخصية وتصوير مميزاته ..

● □ ●

ونمثل لنقده لشعراء المغرب والأندلس بحديثه عن ابن هانئ إذ يقول عنه : « وأما ابن هانئ الأندلسى ولادة ، القيروانى وفادة وإفادة ، فرعدى الكلام ، سردى النظام متين المبانى ، غير مكين المعانى ، يجفو بعضها عن الأوهام حتى تكون كنقطة النظام ، إلا أنه إذا ظهرت معانيه فى جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق يؤثر فى النيق (٢) ، وله غزل قفرى لاعذرى ، لايقنع فيه بالطيف ولا يشفع فيه

---

(٢) رسائل الانتقاد ٢٤ .

(١) النيق : الجبل .

لغير السيف ، ولو عقل لم تضق عليه معانى الشعر حتى يستعين عليها بالكفر »(٢)

□ وفى هذا النص يثير ابن شرف قضية العلاقة بين اللفظ والمعنى .. وأن الشعر الأمثل هو الذى ينال فيه كل منهما حظه الأوفى .. فابن هانئ قوى فى مبانيه ولكنه ضعيف فى معانيه .. أما قوله « حتى تكون كنقطة النظام » فلعله يشير إلى شيء من مقولات ابراهيم النظام المتكلم المعتزلى الشهير .. فقد كانت له تصورات غامضة فى مباحثه الفلسفية .. فشبه غموض معانى ابن هانئ بحديث النظام عن النقطة .. وقد كان النظام يتحدث عن الضوء وبعض مباحث الهندسة ، على أنها جزء من الفلسفة فى عصره .

كما أثار ابن شرف قضية خروج ابن هانئ فى بعض معانيه على حدود الدين .. حتى اتهم بالكفر .. وقد كان لديه سعة من المعانى ، بعيدا عن هذا المروق . .

● □ ●

(٢) رسائل الانتقاد ٢٦ .

مذهب ابن شرف في النقد

بعد هذا العرض لبعض أحكام ابن شرف على الشعراء نصل إلى محاولة وضع حد للنقد .. هل هو علم يدرك بالتحصيل والطلب .. أم هو ذوق وموهبة؟ وهو يرى أن النقد ذوق وموهبة ولا صلة له بالعلم أو رواية الشعر .. فيقول :

« النقد هبة فى الموالد ، وفيه زيادة طارف إلى تالد ، ولقد رأيت علماء بالشعر ورواة له ليس لهم نفاذ فى نقده ، ولا جودة لهم فى فهم رديه وجيده ، وكثير ممن لا علم له به يفطن إلى غوامضه وإلى مستقيمه ومتناقضه (١) » .

وهذه النظرة إلى النقد مخالفة لما درج عليه الأوائل من اعتبارهم أن للشعر صناعة وثقافة يدركها العلماء به كما قال محمد بن سلام الجمحى فى أول طبقاته :

« وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان(٢) » .

ويروى ابن سلام أيضاً أن خلاد بن يزيد الباهلى قال لخلف بن حيان أبى محرز ، وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ، ويقوله : بأى شىء ترد هذه الأشعار التى تروى؟

---

(١) رسائل الانتقاد ص ٢٧ .

قال له : هل فيها ما تعلم أنت أنه مصنوع لاخير فيه ؟ قال : نعم . قال : أفتعلم فى الناس من هو أعلم بالشعر منك؟ قال نعم . قال: فلا تنكر أن يعلموا من ذلك أكثر مما تعلمه أنت » (١)

☐ وليس هناك تعارض بين أن يكون للناقد ثقافة تعينه على النظر فى الشعر نظرا معتمدا على قواعد ثابتة ، وبين وجود الموهبة والحس المرهف ..

أما المنهج الذى يرتضيه ابن شرف فى النقد ، فهو الذى يقوم على التأمل وإنعام النظر واستخدام الفكر .. ولا يرتضى النظرة العجلى ولا التعبير عن الانطباع السريع ، وبهذا يجعل ابن شرف النقد قائماً على أحكام يرتضيها العقل لا على أحاسيس سريعة تعبر عن الخاطر الأول .. يقول :

« أول ما عليه تعتمد واياه تعتقد ، ألا تستعجل باستحسان ولا باستقباح ، ولا باستبراد ولا باستملاح ، حتى تنعم النظر وتستخدم الفكر ، واعلم أن العجلة فى كل شىء مركب زلوق وموطئ زهوق »(٢)

اللفظ والمعنى

ويحذر ابن شرف من الاحتفال بجزالة اللفظ ، وفخامة المبنى دون نظر إلى ما يتضمنه من المعنى .. فيقول :

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/٥ .
(٢) رسائل الانتقاد ص ٢٧ .

« وإن من الشعر ما يملأ لفظه المسامع ، ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه وانظر إلى ما في سكناه من معناه ، فإن كان في البيت ساكن فتلك المحاسن ، وإن كان خالياً فاعدده جسما بالياً » (١)

وهذه الإشارة إلى الشعر الذى لا معنى وراءه مع حسن اللفظ ورونقه .. لا تخرج عما ذكره ابن قتيبة فى تقسيمه للشعر فى أول كتابه « الشعر والشعراء » إذ بين أن من الشعر ضرباً :

« حسن لفظه وحلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

فهذه الألفاظ كما ترى — أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ،

---

(١) المصدر السابق .

ومضى الناس لاينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح ، وهذا الصنف فى الشعر كثير »(١)

ولا يمكن فى نظرنا أن يكون هناك لفظ يخلو من المعنى .. ما دامت له دلالة .. والأبيات التى مثل بها ابن قتيبة للشعر الذى ليس وراءه كبير معنى تحفل بالصور الجميلة وتوحى بكثير من المعانى كقوله « ولما قضينا من منى كل حاجة » فما الحاجات التى يتصورها الخيال فى هذا السياق .. قد تكون الحاجات الدينية المتعلقة بالحج .. وقد تكون الحاجات الدنيوية من البيع والشراء .. وابتغاء المنافع .. وقد تكون حاجات اللقاء فى هذا الموسم الحافل .. وكذلك قوله « ولا ينظر الغادى الذى هو رائح » وقوله: « أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ، وسالت بأعناق المطى الأباطح » فإن فيها من جمال التصوير والتعبير عن الحركة والموقف ما يجعل هده الأبيات صورة حية لمشهد النفرة من منى والعودة إلى الديار ..

ولماذا لم يعب ابن قتيبة على ابن حلزة قوله فى معلقته :

أبرموا أمرهم بليل فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن ... تصهال خيل خلال ذاك رغاء

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١/٦٤ (ط المعارف) .

فأى معنى فى هذين البيتين إلا تصوير النهوض بالسحر والتنادى إلى طلب الثأر ..

وأى معنى يبحث عنه ابن قتيبة وابن شرف ، ومن تابعهما فى هذا الاتجاه . . دون نظر إلى ما فى الشعر من صياغة وتصوير . . مما حدا بعبد القاهر أن ينعى على أصحاب هذا الاتجاه ، إذ قال :

« واعلم أن الداء الدوى والذى أعيا أمره فى هذا الباب : غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ ، وجعل لا يعطيه من المزية إن هو أعطى إلا ما فضل من المعنى ، يقول : ما فى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدباً ، واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فإن مال إلى اللفظ شيئاً ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة ، ثم لا ينظر فى حال تلك الاستعارة أحسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه أم للأمرين ؟ قد قنع بظواهر الأمور (١) » .

وقد فصل عبد القاهر فى تلك القضية التى اختصم فيها الكثير من البلاغيين والنقاد فقال :

---

(١) دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ص ١٩٤ ط المنار .

« فإن الأمر بالضد إذا جئنا إلى الحقائق وإلى ما عليه المحصلون ، لأنا لانرى متقدماً فى علم البلاغة مبرزا فى شأوها إلا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه ويزرى على القائل به ويغض منه »(١).

ثم يعلل ذلك بأن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشيء الذى يقع التصوير والصوغ فيه ، كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار ، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر فى صوغ الخاتم وفى جودة العمل ورداءته أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذى وقع فيه العمل وتلك الصنعة ، كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر إلى مجرد معناه (٢) ».

وابن شرف من هؤلاء الذين يؤثرون جانب المعنى ويجعلون له القيمة والاعتبار .. بدليل أنه يبحث عن المعنى وإن كان اللفظ ضعيفاً أو مبتذلا . . كما قال : « وكذلك إذا سمعت ألفاظاً مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما فى أضعافها ، فكم من معنى عجيب فى لفظ غير غريب ، والمعانى هى

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .

الأرواح والألفاظ هى الأشباح ، فإن حسنا فذلك الحظ الممدوح وإن قبح أحدهما فلا يكن الروح » .

وقد عاش ابن شرف فى القرن الخامس الهجرى وقد اتضحت معالم النقد وميزت اتجاهاته .. ومن قبل أعلن الجاحظ فى القرن الثانى أن « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى والمدنى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير (١) »

وهو الرأى الذى ارتضاه عبد القاهر وأحسن الاحتجاج له والاستدلال عليه، بل جعله الرأى الذى لا محيد عنه حين ربطه بقضية إعجاز القرآن ، إذ يؤدى القول بتفضيل المعنى إلى عدم الاعتداد بجمال اللفظ وهذا « يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ويبطل التحدى من حيث لا يشعر (٢) »

ومن هنا فإن إيثار المعنى فى العمل الأدبى يؤدى إلى إسقاط مناط التفاضل وهو الصياغة والتصوير ..

---

(١) الحيوان ٣/١٣١ « تحقيق عبد السلام هارون » .
(٢) دلائل الاعجاز لعبد القاهر ص ١٩٧ (ط المنار) .

القديم والحديث :

☐ كان ابن شرف عادلا فى نظرته إلى القديم والحديث.. فتراه ينصح بالتروى فى النظر إلى القديم .. حتى لا يحمل إجلاله على استحسانه . . كما يوصى بترك التهاون بشعر المحدثين والمعاصرين .. بل لابد من التمحيص والتدقيق قبل الحكم .. دون اعتبار للقدم ولا إزراء بالحداثة ؟ يقول ابن شرف : « وتحفظ من شيئين : أحدهما أن يحملك إجلالك القديم المذكور على العجلة باستحسان ما تسمع له . والثانى : أن يحملك إصغارك المعاصر المشهور على التهاون بما أنشدت له ، فإن ذلك جور فى الأحكام وظلم من الحكام ، حتى تمحص قوليهما ، فحينئذ تحكم لهما أو عليهما » (١).

ويدعو ابن شرف إلى اتباع العدل فى النقد .. فهو نوع من الحكم بين الناس .. يلزم فيه إعطاء كل ذى حق حقه :

« فلا يرعك أن تجرى على منهاج الحق فى جميع الخلق فبه قامت السموات والأرض ، وبه أحكم الإبرام والنقض»

وبهذا يقف ابن شرف مع أمثاله من النقاد العدول

---

(١) رسائل الانتقاد ٢٧ .
(١) المرجـع السابـق .

الذين دعوا إلى اطراح العصبية .. وإلى ترك تفضيل القديم لقدمه .. والإزراء بالحديث لحداثته .. وهو الاتجاه الذى بدأه الجاحظ حين أعلن رأيه بقوله :

« والقضية التى لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب ، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى من المولدة والنابتة ، وليس ذلك بواجب لهم فى كل ما قالوه. ولقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ، ولم أر ذلك قط إلا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان (١) » .

وسار على هذا النهج ابن قتيبة إذ قال فى مقدمة كتاب الشعر والشعراء : « ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا منهم حظه ، ووفرت عليهم حقه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه

(١) الحيوان ٣/١٣٠ .

قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله ! ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، وكل شرف خارجية فى أوله (١) » .

وهذا الاتجاه المنصف إنما ظهر فى مواجهة تعصب رواة اللغة للشعر القديم وإزرائهم بكل محدث ، ما دام لا يفيدهم فى الاحتجاج .. والروايات المأثورة عن هؤلاء المتعصبين شهيرة فى كتب الأدب ، ومنها ما ذكره المرزبانى فى الموشح عن ابن الأعرابى أنه قال : « إنما أشعار هؤلاء المحدثين ، مثل أبى نواس وغيره ، مثل الريحان ، يشم يوماً ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيباً (٢) » .

ولا يبعد عنا فى هذا المقام موقف التحامل على أبى نواس الذى وقفه ابن شرف فى حكمه عليه الذى أشرنا اليه آنفاً ، وكان أبو نواس من زعماء حركة التجديد فى عصره ..

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١/٦ — ٧ (ط الحلبى الاولى) .
(٢) الموشح للمرزبانى ص ٢٤٦ تحقيق عبد الستار فراج .

لكن ابن شرف لا يقف هذا الموقف من كل مجدد .. بل ضاق بأبي نواس لخروجه على القواعد التي سنها القدماء وتابعهم عليها الكثير من الشعراء في العصرين الأموي والعباسي .

المقياس الخلقي :

عاب ابن شرف على امرئ القيس فحشه وإسفافه.. وجهره بالسوء من القول .. ثم وجه اعتراضاً وأجاب عنه فقال :

«فإن قال قائل : إنما وصفت عن امرئ القيس عيوباً فى خلقه لا فى شعره ؟ قلنا : هل أراد بما وصف فى شعره إلا الفخر ؟ .»

فإن قال : لم يرد ذلك وإنما أراد إظهار عيبه . قلنا : فأحمق الناس إذن هو . ولم يكن كذلك .

فإن قال : نعم الفخر له .

قلنا ؟ فقد نطق شعره بقدر ما أراد ، وترجم عنه قريضه بأقبح الأوصاف . وأى خلل من خلال الشعراء أشد من الانعكاس والتناقض ، وكل ما يخزى من الشعر فهو من أشد عيوبه » (١) .

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٦ .

وبهذا يربط ابن شرف بين القيمة الفنية للشعر والقيمة الخلقية .. ويرى أن إسفاف التجربة التى يحتويها الشعر تزرى بقدره وتحط من مكانته ..

وهو اتجاه سديد .. يتواءم مع القيم الإسلامية .. وينبع من موقف القرآن من الشعر ، فى قوله سبحانه : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

وقد أشار ابن سلام إلى هذه القيمة فى حديثه عن الفرزدق إذ قال :

« وكان الفرزدق أقول أهل الإسلام فى هذا الفن قال :

هما دلتانى من ثمانين قامة
كما انقض بازأقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا
أحيا يرجى أم قتيلا نحاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لا يفطنوابنا
ووليت فى أعجاز ليل أبادره
وأصبحت فى القوم الجلوس وأصبحت
مغلقة دونى عليها دساكره

قالها وهو بالمدينة ، فأنكرت ذلك قريش ، وأزعجه مروان بن الحكم وهو وال على المدينة فأجله ثلاثاً ثم أخرجه عنها (١) » .

وقد قارن ابن سلام بين جرير والفرزدق فى هذا الشأن.. فأشاد بعفة جرير فى غزله إذ قال : « وكان جرير مع إفراطه فى الهجاء يعف عن ذكر النساء ، كان لا يشبب إلا بامرأة يملكها (٢) » .

أما الجاحظ فقد كان ينظر إلى الشعر على أنه تصوير دون نظر إلى ما يحويه من قيمة ..

فقد روى الجاحظ عن بعض شعراء الأعراب بيتين فى هجاء أمه .. وعقب عليهما بقوله : « وقد مثل ، وقد أحسن فى نعت الشعر وإن لم يكن أحسن فى العقوق (٣)

والحق أن مقياس ابن شرف فى النظر إلى التجربة الشعرية واعتبارها مقوماً من مقومات الحكم على الشعر ، هو المقياس الصحيح ، فليس الشعر تصويرا فحسب .. بل ينبغى أن يرتفع عن الإسفاف والحيوانية .. وفى العصر الحديث نعى « بندتوكروتشيه » فى كتابه « الشعر »

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١/٤٤ تحقيق محمود شاكر .
(٢) المصدر السابق ١/٤٦ .
(٣) الحيوان ٦/٣٩٦ .

على الشعراء المسفين : « فلم تصر الشخصية محددة عن طريق نتاجها الشعرى ، بل صار الأمر على النقيض من ذلك ، إذ صار النتاج الشعرى هو المحدد بصميم الحيوانية الفردية التى غرق فيها وضاعت معالمه ، وحين يتحدثون عن الشعر أنبل الشعر يتحدثون عنه وقد أصابته هذه العدوى وفاضت منه رائحة التقزز ، رائحة الجنس والغريزة الحيوانية المفترسة » (١)

وإذن فقول ابن شرف : « وكل ما يخزى من الشعر فهو من أشد عيوبه » يكشف عن ربطه بين القيمة الخلقية والقيمة الفنية للشعر .. وهو الاتجاه الصحيح فى النقد . فى القديم والحديث ..

النقد التطبيقى :

بعد أن تناول ابن شرف بعض قضايا المنهج النقدى ضرب بعض الأمثلة لتطبيق منهجه فى تحليل الشعر والحكم عليه .. ومهد لذلك بقوله :

« وفضلاء الشعراء كثير جدا ، ولكل سقطات وسأقفك إلى بعضها ، لعظيم المؤونة فى الإحاطة بها

---

(١) النقد الادبى الحديث للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٤٠٠ ، الطبعة الاولى .

لأوضح لك منهجاً من مناهج النقد ، لا حرصاً على تنقص الفصحاء ، ولا قصدا إلى تهجين الصرحاء ، وأية رغبة لنا فى ذلك ، وهم جرثومة فروعنا ؟ (١) » .

فهى طريقته فى تتبع الأخطاء والبحث عن معايب الشعر .. وهى تقوم على مقاييس عمود الشعر وخاصة ما يتعلق بشرف المعنى ، وصوابه وخلوه من التناقض والإحالة ..

فانظر إلى نقده لقول زهير بن أبى سلمى :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمته ومن تخطئ يعمر ويهرم

إذ يقول : « وقد غلط فى وصفها بخبط العشواء على أننا لا نطالبه بحكم ديننا لأنه لم يكن على شرعنا ، بل نطالبه بحكم العقل ، فنقول : إنما يصح قوله لو كان بعض الناس يموت وبعضهم ينجو ، وقد علم هو ، وعلم العالم ، حتى البهائم ! أن سهام المنايا لاتخطئ شيئاً من الحيوان حتى يعمها رشقها ، فكيف يوصف بخبط العشواء رام لا يقصد غرضاً من الحيوان إلا أقصده حتى يستكمل رمياته فى شواكل رميّاته . وإنما أدخل الوهم

(١) رسائل الانتقاد ص ٣٣ .

على زهير موت قوم عبطة ، وموت قوم هرماً ، فظن طول العمر إنما سببه إخطاء المنية ، وسبب قصره إصابتها وهيهات الصواب من ظنه ، لم يؤخر الهرم ، إلا أنها ما قصدته ، فحين قصدته أصابته ولو أن الرماة تهتدى كاهتدائها لملأت أيديها بأقصى رجائها (١) » .

وهكذا حاول ابن شرف جاهدا إظهار خطأ زهير فى تصويره لموقف المنايا من البشر ..

مع أنه يمكن تحليل معنى هذا البيت تحليلا يظهر صواب معناه .. فالإنسان طوال حياته معرض للمنايا والحتوف من الأخطار والأعراض المختلفة .. فبعض الناس يصيبه الحتف فيموت وبعضهم ينجو إلى حين .. حتى يأتى أجله .. وفى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم خط خطا مربعا وخط خـُططا ثم قال هذا الانسان وهذا أجله .. وهذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا »(٢) ..

فالمرض الواحد يصيب شخصين .. ينجو أحدهما منه ويهلك الآخر .. وكذلك الحرب يغشاها كثيرون .. فيقتل البعض وينجو البعض الآخر .. فزهير يحاول تصوير

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٢ — ٣٤ .

(٢) الحديث بنصه والرسم الموضح له فى ارشاد السارى للقسطلانى ٩/٢٤٠ .

العوارض المختلفة التى تصيب الإنسان .. وإخطاء المنايا معناه أن الأجل لم يحن وأن فى العمر بقية .. وإذن فلم يغب عنه ما ذكره ابن شرف فى قوله : «لم يؤخر الهرم إلا أنها ما قصدته ، فحين قصدته أصابته» فمن المعلوم للناس كافة أن الأجل إذا جاء لا يؤخر .. ولكن من المؤكد أيضا أن الإنسان قد ينجو من مظنة الهلاك .. ويسلم رغم تعرضه للخطر .. فهنا يمكن أن يقال أخطأته سهام المنية ..

لكننا نوافق ابن شرف على اعتراضه على زهير فى قوله «خبط عشواء» وقد اعتذر عنه بجاهليته ، ولم يطالبه بحكم الإسلام .. وإن طالبه بحكم العقل.

وعلى هذه الوتيرة يمضى ابن شرف فى الغوص فى أعماق المعانى للنفاذ إلى ثغرة للخطأ فيها .. فتراه يعيب على زهير أيضا قوله :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدَّم ومن لا يظلم الناس يُظلم

فيقول :

«وقد تجاوز فى هذا الحق إلى الباطل ، وبنى قولا ينقضه جريان العادة وشهادة المشاهدة ، وذلك أن الظلم

وعرة مراكبه مذمومة عواقبه ، فى جاهليته وإسلامنا ، فحرض فى شعره عليه ، وإن كان إنما أشار إلى أن الظالم يرهب فلا يظلم ، فهذا قياس ينفسد ، وأصل ليس يطرد ، لأن الظالم يرهبه من هو أضعف منه ، وربما انتقم منه بالحيلة والمكيدة ، وقد يظلم الظالم من يغلبه ، فيكون ذلك سبب هلاكه ، مع قباحة السمة بالظلم ، والمثل إنما يضرب بما لا ينخرم ، وقد كانت له مندوحة واتساع فى أن يقول : يهدم .. ومن لا يدفع الظلم يُظلم »(١) . وقد يمكن الدفاع عن زهير أيضا بما لا تكلف فيه ، ذلك أنه بدأ بتقرير حقيقة لاريب فيها .. وهى أن من لم يدفع عن نفسه الظلم أصابه الأذى .. وذلك فى قوله : ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم » .. فالمقام هنا مقام دفاع ورد للعدوان .. ومن هنا فإن قوله ومن لا يظلم الناس يظلم .. يمكن أن يفهم على أنه من باب المشاكلة .. كقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .. فالسيئة الأولى حقيقة .. والثانية هى رد للأولى ، وليست سيئة فى الحقيقة .. لكنها جزاء للسيئة .. فيكون المعنى فى بيت زهير أن من لم يدفع الظلم عن نفسه أصابه الظلم ..

---

(١) رسائل الانتقاد ٢٤ .

وبهذا تتفق الجملة الثانية مع الأولى فى الدعوة إلى دفع الظلم ورد العدوان ..

فابن شرف يلجأ إلى تحليل المعنى وعرضه على مقاييس الصحة .. لاختبار سلامته وصوابه .. وهو يبالغ فى ذلك كما رأينا .. وكذلك صنع فى نقده لقول زهير : :

تراه إذا ما جئته متهللا
كأنك تعطيه الذى أنت سائله

فيذكر أن هذا البيت : « من أطيب شعره وأصلحه عند العامة وكثير من الخاصة فهاهنا تحفظ وتأمل ، ولا يَهُولَنَّكَ ذلك فالحق أبلج » ..

أما تحليل هذا المعنى الخاطئ عند ابن شرف فهو فى قوله : « مدح بها شريفاً أى شريف ، فجعل سروره بقاصده كسروره بمن يدفع شيئاً من عرض الدنيا إليه وليس من صفات النفوس العارفة السامية ، ولا الهمم الشريفة العالية إظهار السرور إلى أن تتهلل وجوههم وتسر نفوسهم بهبة الواهب ، ولا شدة الابتهاج بعطية المعطى ، بل ذلك عندهم سقوط همة وصغر نفس ، وكثير من ذوى النفوس النفيسة والأخلاق الرئيسة لا يظهر السرور متى رزق مالا عفوا بلا منة مثيل ولا يد معط

ومستطيل ، لأنه عند نفسه أكبر منه ، ولأن قدر المال يَقْصر عنه ، فكيف أن يمدح ملك كبير القدر عظيم الفخر بأنه يتهلل وجهه ويمتلىء سرورا قلبه إذا أعطى سائله مالا ؟ هذا نقص الثناء ومحض الهجاء ، والفضلاء يفخرون بضد هذا ، قال بعضهم :

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى
ولا جزع من صرفه المتقلب

وإنما غر زهيرا وغر المستحسن بيته هذا ، ما جبلوا عليه من حب العطاء ، وما جرت به عادتهم من الرغبة فى الهبات والاستجداء ، وليس كل الهمم تستحسن ذلك ، ولا كل الطباع تسلك هذه المسالك (١) » .

والعجب من ابن شرف فى هذا التمحل وهذه التخطئة وكيف يزعم بعد أجيال مضت بعد زهير .. أن بيته هذا ذم لا مدح .. وكيف لم يفطن لذلك الممدوح ولا أحد من أهل البصر بالشعر فى عصره أو بعد عصره .. حتى جاء ابن شرف ليرى أن وصف زهير لممدوحه بالبشر والتهلل للسائلين .. ذم له .. لأن الشاعر شبه تهلله بتهلل من يأخذ .. ورأى أنه ليس من أخلاق الكبراء أن يفرحوا بالعطية ولا أن يتهللوا عند النوال ..

---

(١) [illegible]

وهذا تعقيد للمعانى .. وبحث عن المشكلات .. فإن مراد زهير أن يصف الممدوح بالبشر فى وجوه السائلين فلا يشعرون بمذلة السؤال .. إذ أنه رفع عنهم الحرج الذى يصيب من يبتغى النوال .. فيشعرون أنهم هم المعطون وليسوا السائلين ..

وليس المقصود فى هذا المقام تشبيه فرح الممدوح بورود السائلين عليه ، بفرح من يتلقى النوال من غيره .. بل تلك غاية النبل أن يشعر المعطى بامتنان للسائل .. لأنه أتاح له فرصة العطاء وتعرض لجوده.

وعلى هذه الوتيرة يمضى ابن شرف فى نقده المتكلف لشعر زهير .. فيعيب عليه قوله :

على مكثريهم حق من يعتريهم
وعند المقلين السماحة والبذل

فيرى ابن شرف . أن زهيرا لم يمدحهم بل « ذمهم بأنواع الذم . وأكثر الناس على استحسان ما قال ، بل أظن كلهم على ذلك » ..

وهكذا ينفرد ابن شرف بتخطئته لزهير فى هذا البيت ! فأول ما ذمهم به : إخباره أن فيهم مكثرين ومقلين ، فلو كان مكثروهم كرماء لبذلوا لمقليهم الأموال حتى

يستووا فى الحال ، ويشبهوا فى الكرم والحال الذين قال فيهم حسان :

الملحقين فقيرهم بغنيهم
والمشفقين على اليتيم المرمل

وكما قال غيره :

الخالطين فقيرهم بغنيهم
والمشفقين على اليتيم المرمل

وكما قال غيره :

الخالطين فقيرهم بغنيهم
حتى يعود فقيرهم كالكافى

وكما قالت الخرنق :

الخالطين لجينهم بنضارهم
وذوى الغنى منهم بذى الفقر

فهذا كله غاية المدح النقى من القدح (١) » .

ونقف مع ابن شرف فى رؤيته لموطن الخلل فى هذا الشطر من البيت .. فنراه يجعل من ذنوب الشاعر أنه جعل فى القوم مكثرين ومقلين ؟ ! وذلك هو الواقع فى المجتمعات

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٦ .

الإنسانية الذى لا مناص منه ولا يقدر الشاعر على تغييره.. وأى مجتمع على وجه الأرض تألف من أغنياء لا فقراء بينهم ؟.

أما الأبيات التى استشهد بها ابن شرف فلا تتفق مع الفكرة التى يدعو اليها .. فقول حسان :

« الملحقين فقيرهم بغنيهم » وقول غيره : « الخالطين فقيرهم بغنيهم » لا يعنى أن الفقراء أصبحوا مساوين للأغنياء .. بل هم ملحقون بهم أو مخلوطون .. وذلك يعنى الكفالة والمواساة .. ولا يعنى المساواة ..

ثم يرى ابن شرف أن فى هذا الشطر أيضا من الخلل والزلل أنه وصف الأغنياء : « بأنهم ضيعوا القريب ورعوا حق الغريب ، وصلة الرحم أول ما يبدأ به » ثم أخبر أن المكثرين لا يسمحون بأكثر من الاستحقاق فى قوله : «عليهم حق من يعتريهم » ومن أعطى الحق فإنما أنصف ولم يتفضل بما وراء الإنصاف ، والزيادة على الإنصاف أمدح » ..

وهكذا يبلغ ابن شرف غاية التمحل فى البحث عن موطن للزلل .. محتكماً إلى قواعد عامة لاصلة لها بالمعنى الذى يريده الشاعر ..

أما توهمه أن بيت زهير يعني وصف الأغنياء بأنهم ضيعوا القريب ورعوا حق الغريب .. فهو بعيد عن الصواب .. لأن الذين يعطون الحق لمن يعتريهم ويفد اليهم من الآفاق لا يجوز أن نتصور شحهم على المعسرين من أهليهم !

وأما عيبه على زهير وصفهم بأنهم يؤدون الحق ولا يتفضلون بالزيادة عليه .. فهو استغلال لدلالة الألفاظ المشتركة . . فإن الحق في هذا المجال هو ما يسد الخلة ويفي بالحاجة . . وليس الحق المفترض الذي يجب وفاء لدين أو عوضاً في معاملة .. بل إن الحق هنا كله من باب البر والتطوع ، وإنما جعله حقاً لأنهم أوجبوه على أنفسهم ..

ثم يرى ابن شرف أن زهيرا أخبر في البيت « أن المقلين على قصور أيديهم أكرم طباعاً من مكثريهم على قدرتهم ، في قوله : « وعند المقلين السماحة والبذل » «والبذل مع الإقلال مدح عظيم وإيثار ، والسماحة إعطاء غير اللازم ، فمدح في شعره هذا من لا يحظى منه بطائل ، وذم الذين يرجو منهم جزيل النائل ، وهذا غاية الغلط في الاختيار وفي ترتيب الأشعار »(١) والواضح في بيت زهير

(١) رسائل الانتقاد ٣٦ .

أنه مدح القوم جميعهم بالكرم مكثرين ومقلين .. فالمكثرون يعطون العطاء الجزيل .. والمقلون يبذلون على قدر طاقتهم .. فليس هناك تفضيل للمقلين على المكثرين وما داموا من قبيل واحد .. فالمدح متجه اليهم جميعاً .. وإذا وصف المقلين منهم بالسماحة والبذل .. فما بالك بالمكثرين ..

وهكذا يصل ابن شرف بمبالغته فى تحليل المعانى إلى رؤية الخلل والزلل فيها .. ويغفل عن رؤية الصورة التى قصدها الشاعر، بهذا النقد للجزئيات ومحاكمتها إلى القواعد والأحكام المنطقية.

وقد دافع ابن شرف عن هذا المنهج الذى نراه متعسفا ورفض اتهام من يرى أن هذه الطريقة استقصاء وظلم، وكأنه أحسن بتوجه هذا الاعتراض اليه فقال :

« ولزهير غير هذا من السقطات، لولا كلفة الاستقصاء هذا على اشتهاره بأنه أمدح الشعراء، وأجزل الوافدين على الأشراف والأمراء، وسيتعامى المتعصب له عن وضوح هذا البيان، وسينكر جميع هذا البرهان، ويجعل التفتيش عن غوامض الخطأ والصواب استقصاء وظلماً، ومطالبة وهضماً، ويزعم أن جميع الشعر لو طلب(١) هذه المطالبة، لبطل صحيحه وانعجم فصيحه .

---

(١) كذا . ولعلها : طولب .

والباطل الذى زعم ، والمحال الذى به تكلم ، فالسليم سليم ، والكليم كليم .

وإنما سمع المسكين أن أملح الشعر ما قلت عبارته ، وفهمت إشارته ، ولمحت لمحه ، وملحت ملحه ، ورقت حقائقه ، وخفت رقائقه ، واستغنى فيه باللمحة الدالة عن الدلائل المتطاولة ، وأمثال هذا الكلام فى استعمال لطائف النظام ، فتوهم أن خلل الشعر وزلله وضعف أركانه وتناقض بنيانه ، وانقلاب لفظه لغوا ، وانعكاس مدحه هجوا ، داخل فيما قدمنا من الأوصاف المستحسنة من لمح إشاراته وملح عباراته »(١) .

سقطات المولدين :

وكما أشار ابن شرف إلى عيوب شعر امرئ القيس وزهير بن أبى سلمى وهما من أعلام العصر الجاهلى .. فقد أشار إلى أخطاء الشعراء المولدين ، وهم الذين لا يحتج الرواة بأشعارهم .. فجعل لهم سقطات .. ورأى أن شعرهم طبقات متفاوتات ..

يقول ابن شرف : « ولفضلاء المولدين سقطات مختلفات فى أشعارهم ، أذاكرك منها فى أشياء ، لتستدل بها على

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٧ — ٣٨ .

أغراضك ، لا لطلب الزلات ، ولا لاقتفاء العثرات : كان بشار متباين طبقات شعره ، فيصعد كثيرها ، ويهبط قليلها كثيراً . وكذلك كان حبيب الطائى ، فإذا سمعت جيدهما ، كذبت أن رديهما لهما »(١)

● □ ●

ويوصى ابن شرف الناقد بالإعراض عن هذا اللون الذى يحوى الخطأ وازدرائه : « فعامل هذا الصنف بعطفك عنه العطف ، ورفعك عليه الأنف ، وأعرض عنه بالفكر والذكر كبراً وإن لم تكن من أهل الكبر » (٢)

ويظن ابن شرف أنه بهذا النقد المتعسف لشعر امرئ القيس وزهير ، قد وضع المنهج القويم للنقد : « وفيما أطلعتك عليه من شعرى هذين الفحلين ، والمتقدمين القديمين ما يغنى عن التفتيش عن سقطات سواهما ، فقس على ما لم تره بما ترى ، واعلم أن كل الصيد فى جوف الفرا(٢) »

ولو أن النقاد اتبعوا منهج ابن شرف المتعسف فى تتبع العثرات الناشئة عن التقطيع لأوصال الصورة لما سلم شعر من الخلل والزلل ..

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٩ .

(٢) المرجع السابق ٣٧ .

وهو منهج جزئى فى النقد، يقف أمام التعابير والألفاظ.. ويرجع إلى قواعد منطقية ، تغفل تجربة الشاعر وتهمل الصورة الكلية التى يرسمها..

عيوب الشعر :

حاول ابن شرف أن يضع أسساً للنقد ، بعضها يرجع إلى المعنى ، والبعض الآخر يرجع إلى الألفاظ أوالأوزان..

فقد رأى ابن شرف أن من عيوب الشعر : « اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية » (١).

وهى عبارة بارعة ، احترز بها ابن شرف عن الضرورات الشعرية التى تسيغها القواعد . أما اللحن الذى لا تسعه فسحة العربية فهو الذى يتجاوز كل وجوه التيسير فى هذه اللغة ولا يخرج على مذهب من المذاهب النحوية المتعددة وليس هذا المقياس جديداً ، بل هو معروف من قبل . وقد كان اللغويون هم الذين يحملون على لحن الشعراء أو خروجهم عن القواعد .. وقد عابوا على الفرزدق قوله :

وعض زمان يابن مروان لم يدع
من الناس إلا مسحتاً أو مجلف(٢)

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٧ .

(٢) الاغانى وطبقات ابن سلام « ترجمة الفرزدق »

حيث حاروا فى الوجه الذى يعطف به المرفوع على المنصوب .. مع أن الفرزدق من الشعراء الذين يحتج اللغويون والنحاة بأشعارهم .

وقد أشار ابن شرف إلى مقياس دقيق من مقاييس التناسب اللفظى .. وهو الذى أسماه خشونة حروف الكلمة وذلك فى قوله : « ومما يعاب به الشعر ويستهجنه النقد خشونة حروف الكلمة كقول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا
هلا هزأت بغيرنا يا بوزع

وهذا البيت فى قصيدة من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها فثقلت القصيدة كلها بهذه اللفظة . وللفرزدق لفظات كثيرة خشنة الحروف ، تجدها إن استقصيتها وفتشتها (١) على لفظة جرير هذه. ولا تكاد ترى أختا لها فى شعره (٢)» .

أما المقياس فصحيح .. فإن خشونة الحروف فى موضع لا تحتمل فيه هذه الخشونة ، يعد عيباً من عيوب الشعر.. ولكنا نخالفه فى هذا التمثيل ببيت جرير .. فإن كلمة « بوزع » اسم لهذه المرأة التى يخاطبها جرير ، مع مناسبته

---

(١) كذا ولعلها : وقستها .
(٢) رسائل الانتقاد ٣٨ .

للقافية التى بنى عليها قصيدته وهى العين ، فكيف تعاب القصيدة كلها وهى كما يقول ابن شرف « من أحلى قصائد جرير وأملحها وأجزلها وأفصحها » وكيف تثقل القصيدة كلها بهذه اللفظة ؟ . وما مقياس الخشونة فى هذه الكلمة مع سهولة نطقها وخفة إيقاعها .. ثم إن المخاطبة هنا تهزأ بجرير وشيخوخته .. فلا أقل من أن يخاطبها بهذا الاسم غير المألوف .. ولو سلمنا بخشونة حروف هذه الكلمة .. فإن ذلك العيب يقف عند البيت الذى وردت فيه ، ولا يمتد إلى القصيدة كلها ..

وأما حكمه على الفرزدق بأن فى شعره لفظات كثيرة خشنة الحروف فهو حكم يحتاج إلى مراجعة .. فالخشونة فى بعض المواضع تناسب مقتضى الحال .. وقد تختلف الأذواق فى النظر إلى هذه الخشونة باختلاف البيئات والعصور . وربما كانت بيئة ابن شرف الحضارية المترفة فى المغرب وصقلية والأندلس .. لا تحتمل الألفاظ البدوية أو الثقيلة الإيقاع .. ومن هنا فلا بد من الرجوع إلى البيئة الزمانية والمكانية .. وإلى موضوع القصيدة ومناسبتها قبل الحكم عليها بخشونة للحروف ..

وهناك بعض المقاييس التى أكثر النقاد الحديث عنها كالتعقيد اللفظى .. وإليه أشار ابن شرف بقوله :

« ويكره النقاد تعقيد الكلام فى الشعر وتقديم آخره وتأخير أوله ، كقول الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقاربه (١)

كما أن ابن شرف قد أصاب فى لمحاته التى تكشف عن حس دقيق . إذ رأى أن من عيوب الشعر المذمومة : « مجاورة الكلمة مالا يناسبها ولا يقاربها ، مثل قول الكميت :

حتى تكامل فيها الدل والشنب

وكما قال بعض المتأخرين فى رثاء :

فإنك غيبت فى حفرة
تراكم فيها نعيم وحور

وإن كان النعيم والحور من مواهب أهل الجنة ، فليس بينهما فى النفوس تقارب ، ولا لفظة تراكم مما تجمع بين الحور والنعيم .

ومثل قول بعض المتأخرين :

والله لولا أن يقال تغيرا
وصبا وإن كان التصابى أجدر

(١) رسائل الانتقاد ٣٨ .

لأعاد تفاح الخدود بنفسجاً
لثما وكافور الترائب عنبرا

فالتفاح ليس من جنس البنفسج لأن التفاح ثمرة والبنفسج زهرة

وقد أجاد في جمعه بين الكافور والعنبر ، لأنهما من قبيل واحد ولو قال :

لأعاد ورد الوجنتين بنفسجا
لثما وكافور الترائب عنبرا

لأجاد الوصف وأحسن الرصف »(١) .

وهذا الكلام نفيس فى موازين النقد ، إذ يبحث عن التناسب بين أجزاء البيت ، ويحرص على وجود العلاقة النفسية بين المعانى ، كما يدل على ذلك قوله : « فليس بينهما فى النفوس تقارب » بل إنه يحرص على التناسب بين المعنى واللفظ المستعمل فى أدائه ، ولهذا اعترض على استعمال كلمة « تراكم » لأنها لا تناسب النعيم والحور ..

---

(١) رسائل الانتقاد ٣٨ — ٣٩ .

وقد يمكن مناقشة ابن شرف فى استعماله هذا المقياس ، إذ عاب على الشاعر المتأخر جمعه بين التفاح والبنفسج فى سياق واحد ، لأن التفاح ثمرة ، والبنفسج زهرة ، مع أن الشاعر إنما عنى تبديل لون البنفسج بلون التفاح ، فحمرة الخد تشبه حمرة التفاح .. فأراد أن يحول هذا اللون إلى لون البنفسج .. وإذن فلا حرج عليه فى الجمع بين الثمرة والزهرة .. إذ لا يلزم فى التشبيه أن يكون من كل وجه ..

وقد عاب ابن شرف الافتتاحات الثقيلة مثل قول أبى تمام :

أهن عوادى يوسف وصواحبه

كما عاب الافتتاحات المتطير بها والكلام المضاد للغرض ومثل له بقول المتنبى :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً

وحسب المنايا أن يكن أمانياً

وهو كلام معاد طالما ردده النقاد من قبل ومن بعد .. وإن كان التأمل يكشف عن خطأ هذا المقياس النقدى

القديم .. فالافتتاحات ذات علاقة بتجربة الشاعر وهى تعبر عن حالته النفسية عند الدخول فى القصيدة ..

وليس الشاعر مطالباً بأن يتصنع السرور إن كان حزيناً، ولا أن يحاول إدخال الفرح على الممدوح أو المخاطب ، وإنما ساق النقاد القدماء إلى اصطناع هذا المقياس ظنهم أن مهمة الشاعر أن يثير التفاؤل والسرور فى نفس من يخاطبه . مهملين أحاسيسه وموقفه من تجربته ..

وقد كان ابن شرف على صواب حين استقبح الإتيان بالقافية من أجل مناسبة حرف الروى ، دون ارتباط بالسياق : « ويقبح جداً الإتيان بكلمة القافية معجمة ، لا ترتبط بما قبلها من الكلام وإنما هى مفردة بحشو القافية ، كقول بعضهم .

فبلغت المنى برغم أعاديك

وأبقاك سالماً رب هود

فأنت ترى غثاثة هذه القافية ، فالله تعالى رب جميع الخلق وكل شيء ، فخص هودا عليه السلام وحده ، لضعف نقده وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن» (١)

(١) رسائل الانتقاد ٤١ .

والحق أن مجال القدرة فى النظم إنما تكمن فى القدرة على الإتيان بالقافية مؤدية لمعنى ، لا يستكره عليها الشاعر ، ولا يجتلبها اجتلابا .. وهذا مقياس معروف عند النقاد قبل ابن شرف وبعده ، لكن الجديد عند ابن شرف هو تعليله للإتيان بالقافية التى لا تؤدى معنى « بضعف نقده وعجزه عن الإتيان بقافية تليق وتحسن » فهو يرى أن الشاعر هو أول ناقد لعمله الأدبى ، وعليه أن يتحسس مكان القافية فى شعره ، ليرى المناسبة بينها وبين ما قبلها .. وربما كان تنقيح الشعر عند زهير وأمثاله يتعلق بهذا الشأن .. لكن الشاعر المطبوع قادر على الارتجال والإتيان بالقافية متوائمة مع ما قبلها طيعة غير قلقة ولا غريبة ..

النقد العذرى :

تضمنت اشارات ابن شرف النقدية الحديث عن آداب النسيب . مما عرف فى تاريخ النقد العربى بالنقد العذرى وذلك فى قول ابن شرف :

« ومما يقبح : الجفاء فى النسيب على الحبيب ، والتضجر ببعده ، وغلظ العتاب على صده ، كقول أبى نواس :

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور ما يرجى لديك عسير

فإن كنت لا خلا ولا أنت زوجة
فلا برحت منا عليك ستور
وجاورت قوماً لا تزاور بينهم
ولا قرب إلا أن يكون نشور

فلم أسمع بأوحش من هذا النسيب ، ولا بأخشن من هذا التشبيب ، وذلك قوله : إن لم تكونى لى زوجة ولا صديقة ، فلا برحت منا ستور التراب عليك ، ولا كان جارك ماعشنا نحن إلا الموتى الذين لا يتزاورون ولا يتواصلون إلى يوم النشور ، مع أن كلامه يشهد عليه بأنه شاك ، وإنما المعروف فى أهل الرقة والظرف ، والمعهود من أهل الوفاء والعطف أن يفدوا أحبابهم بالنفوس من كل مكروه وبؤس ، فأين ذهبت ولادته البصرية ، وآدابه البغدادية ، حتى اختار الغدر على الوفاء ، وبلغت به طباعه إلى أجفى الجفاء فاعلم هذا وإياك أن تعمس به » (١) .

وهذا المقياس لا يرجع إلى قاعدة .. بل إن مداره على الذوق الدقيق والإحساس الرقيق..

وقد كان محمد بن داود الظاهرى المتوفى عام سبع وتسعين ومائتين أول من عنى ببيان ملامح النقد العذرى

---

(١) رسائل الانتقاد ٤١ — ٤٢ .

فى كتابه « الزهرة » فهو الذى عاب على الشعراء عدم وعيهم بما يجب الاحتراز عنه فى التعبير عن العاطفة . ومن ذلك أنه عاب على جميل بن معمر قوله :

لو كان فى قلبى كقدر قلامة
فضل وصلتك أو أتتك رسائلى

لأن ذلك يدل على أنه لو تهيأ خلاص شيء من حبه فى يدها لصرفه إلى غيرها ، وهذه حال لا ترضى أهل الوفاء ولا يستعملها أهل الصفاء (١) » .

وكذلك عاب ابن داود على الحسين الخليع قوله :

فلست أنا اجى غيره مذ عرفته
فأنظر إلا خائفاً مترقباً

فقد رأى ابن داود : أن « اعتذاره بأنه لا يناجى غير صاحبه إلا خائفاً مترقباً قبيح جداً ، ولعمرى إن الإصرار على الغدر أصلح من التنصل بهذا العذر ، من لم يكن عليه رقيب من نفسه ، يصونها عن مكاره إلفه فلا درك فى مودته (٢) » .

كما كان ابن داود مبالغاً فى الاحتراز حين رأى أن بعض الألفاظ لا تصلح فى مجال الحديث عن العاطفة ،

(١) الزهرة لمحمد بن داود ص ٩٨ من القسم الاول .
(٢) المرجع السابق ١٤٥ .

ومنها لفظة الحقد ، كما يبدو من تعليقه على قول الشاعر :

تحلل أحقادى إذا ما لقيتها

وتنمى بلا جرم على حقودها

فيرى أن قوله : « تحلل أحقادى إذا ما لقيتها » كلام صحيح ولو أبدل اسم الحقد بغيره كان أحسن ، لأن الحقد لا يتولد إلا عن موجدة تخفى فى النفس ويظهر غيرها ، ويرصد صاحبها بالمكافأة عنها ، وهذا كله محال بين المتحابين فى باب الجد والهزل جميعاً (١) ».

كما عاب ابن داود على المتلمس قوله :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى

مساغاً لنابيه الشجاع لصمما

ورأى أنه « يخبر بأن الجناية قد أثرت فى قلبه وولدت حقداً فى نفسه وأن الذي يمنعه من أن ينتقم خوفه من تزايد الألم ، وأنه على أن يعاقب إذا أمن العواقب ، والمعاتبة بل المعاقبة أحسن من الإغضاء على مثل هذه الحال (٢) » .

وغير ذلك من الشواهد التى نقدها ابن داود بمقياس العذرية . ولم يزدهر هذا النقد بعد ابن داود الذى عاش

---

(١) الزهرة ٣٦ .

(٢) الزهرة ١٣٦ .

فى القرن الثالث ، حتى جاء ابن شرف فى القرن الخامس ليجدد بهذه اللمحة النقدية هذا المنهج ، ويلفت النظر إلى أن هناك آدابا تلزم رعايتها فى الحديث عن العاطفة ..

ولكن العجيب فى أمر ابن شرف أنه يطالب أبا نواس بالسمو فى التعبير .. ويتساءل : « أين ذهبت ولادته البصرية وآدابه البغدادية » وليس الأمر راجعاً إلى الحضارة أو الترف .. فإن شعراء العذرية قد عاش أكثرهم فى البادية .. ولم تكن لهم ولادة بصرية ولا آداب بغداية ، وقد أحسنوا التعبير عما فى قلوبهم وارتقوا درجة عالية من الرقة والسمو والتهذيب .. أما أبو نواس فلم يعرف الصدق فى عاطفة .. ولم ينظر إلى المرأة إلا نظرة اللهو والمجون .. ومن هنا فليس عجيباً منه أن يختار الغدر على الوفاء ، أو أن تبلغ به طباعه أجفى الجفاء .. فهذا شأنه الذى يفصح عنه شعره ..

قضية السرقات :

أشار ابن شرف فى صدد حديثه عن عيوب الشعر إلى السرقات الأدبية فقال : « ومن عيوب الشعر السرق (١) »

ثم فصل الحديث عن سرقة الألفاظ وسرقة المعانى وكلامه فى هذه القضية لا يخرج عن كلام النقاد من قبل ،

---

(١) رسائل الانتقاد ٤٢ .

وقد كانت قضية السرقات من قضايا النقد القديم التي شاعت على الألسنة ، وكانت نتيجة من نتائج الموازنات التي كثرت بين الشعراء في العصرين الأموى والعباسى ، بعد اكتمال منهج الرواية وإحاطته بجمهرة الشعر الجاهلى ، مما أتاح للنقاد أن يبحثوا عن أصول المعانى لدي الشعراء ، وأن يتتبعوا أخذ بعضهم عن بعض .. كما كان الشعراء أنفسهم يتهم بعضهم بعضاً ويتنازعون المعانى ، والأبيات فقد ادعى جرير أن الفرزدق يسرق شعر غيره فقال :

سيعلم من يكون أبوه فينا
ومن عرفت قصائده اجتلابا

كما رماه الفرزدق بالتهمة نفسها فقال :

إن استراقك ياجرير قصائدى
مثل ادعائك سوى أبيك تنقل(١)

وقد روي أن جريرا أخذ قول سويد بن كراع العكلى :

وما بات قوم ضامنين لنا دما
فنوفيها إلا دماء شوافع

فنقله إلى قصيدة له ، فلما أنشدها نبه عليه عمر بن نجاء التميمى ، وكان أحد الأسباب التى هاجت الشر بينهما (٢)

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ص ٢١٤ (ط الحلبى)
(٢) المرجع السابق ص ١٩٣ .

وقد كان الجاحظ أول ناقد تناول هذه القضية — على إيجازه — مقررا حقيقة الصلة بين شعر المتقدمين والمتأخرين والمتعاصرين فى أغراضه وألفاظه ومعانيه، مبينا أن هناك معانى مشتركة بين الشعراء ، وهناك ما يأخذه بعضهم عن بعض ، سواء أنكر ذلك أم أقربه ، وذلك فى قوله :

« ولا يعلم فى الأرض شاعر تقدم فى تشبيه مصيب تام ، وفى معنى غريب عجيب ، أو فى معنى شريف كريم ، أو فى بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه ، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره ، فانه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكاً فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطر على بالى من غير سماع كما خطر على بال الأول ، هذا إذا قرعوه به » (١).

فقد ذكر الجاحظ هنا الوجوه الشائعة فى السرقات الشعرية وهى العدوان على اللفظ بسرقة بعضه ، أو ادعائه بأسره ، أو الاستعانة بالمعنى ، سواء اقتصر عليه أم أضاف

(١) الحيوان ٣/٣١١ .

إليه جديداً ، وجاء بعد الجاحظ القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني الذي عاش بين عامي تسعين ومائتين وست وستين وثلاثمائة ، فألف كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» فاستوفى فيه القول في معنى السرقة الأدبية وفصل أنواعها ومتى تعد ممدوحة أو مذمومة ، وكيف يمكن تبين السرقة ولو كانت بقلب المعنى أو في غرض غيره ..

ومن ذلك قوله :

« والسرق أيدك الله داء قديم وعيب عتيق ، ومازال الشاعر يستعين بخاطر الأول ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه ، وكان أكثره ظاهرا ، كالتوارد الذي صدرنا بذكره الكلام ، وإن تجاوز ذلك قليلا في الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الألفاظ » .

ومن هنا فإن إشارة ابن شرف إلى أن السرق من عيوب الشعر تلخيص لما دار حول هذه القضية في تاريخ النقد العربي ، ولم يكن بوسع ابن شرف أن يفصل القول أو يضرب الأمثلة .. لأن طابع رسالته هو الإيجاز والاقتصار على اللمحات والإشارات ..

ابن شرف والمتنبي :

شغل المتنبي الناس فى عصره وبعد عصره ، وما يزال يشغل الناس حتى اليوم فى تحليل معانى شعره واستحسانه أو محاولة تخطئته أو الاستدراك عليه ..

وقد كان لابد لابن شرف أن يستخدم موهبته النقدية فى الوقوف أمام شعر المتنبي ، محاولا الاستدراك عليه فى نظمه الشعري ..

وقد وقف ابن شرف أمام بعض أبيات للمتنبي منها قوله :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

فعاب هذا البيت بقوله : « فضع هذا الكلام على أنه إنما شكى داءه ووصفه بالعظم ، فعاد شاكياً نفسه وجعلها أعظم الداء ، لأنه أراد : كفى بدائك داء ، فغلط وقال : كفى بك داء ، فصار مثل : كفى بالبلاء داء ، فالسلامة هى الداء ، يريد طول البقاء سبيل الفناء ، فجعل المتنبي نفسه أعظم الداء ، ولم يرد إلا استعظام دائه .

وإصلاح هذا الفساد وبلوغه إلى المراد أن يقول :

كفى بالمنايا أن يكن أمانيا

وحسبك داء أن ترى الموت شافيا

والذى نراه أن استدراك ابن شرف على المتنبى فى هذا البيت غير صحيح .. ولعله رأى أن موهبته النقدية لا تظهر إلا باستدراكه على المتنبى وإرشاده إلى الوجه الصحيح فى النظم .

ولم يرد المتنبى بحال أن يجعل نفسه أعظم الداء ! وكيف يفهم ابن شرف ذلك من قول المتنبى : « كفى بلك داء » ومعناه واضح لا لبس فيه ، أى كفى بالداء الذى أصابك عظماً أنك لاترى شفاء له إلا الموت . . وأن تصبح المنايا أمانى يرجوها الإنسان : فهذا أعظم البلاء .. وهو دليل على انقطاع الرجاء .. ولم يرد المتنبى أن يقول إن السلامة داء لأنها سبيل الفناء ! فهذا معنى غامض وبعيد ، ولا صلة له بنسق البيت ..

وقد تعرض المتنبى – كما أشرنا – لخصومات شديدة.. ومحاولات للإزراء بقدره وعيب شعره .. مما حفز القاضى الجرجانى إلى تأليف كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه وقد تناول ابن جنى وأبو العلاء والواحدى والمهلبى وغيرهم شعر المتنبى بالنقد وأخذوا عليه أخطاء فى المعانى والألفاظ .. ودافع عنه آخرون .. ولا يعيب المتنبى أن يكون فى شعره ما ينقد ، فمواطن إحسانه كثيرة ، والنقص من طبيعة البشر ، لكن المهم فى نقد الشعر أن يكون مبنيا على ملحظ

صحيح وذوق سليم ، لا على الإمساك بلفظة وتحوير معناها بما يظهر الخلل فى النظم ..

فقول المتنبى : كفى بلك داء أن ترى الموت شافيا .. تعبير عن حال اليأس التى أصابته .. حتى لم ير خلاصاً له من آلامه إلا الموت .. فكيف صار المعنى عند ابن شرف كفى بلك داء . أى أن نفسه هى أعظم الداء .. وإذن فما مغزى قوله : « أن ترى الموت شافيا » مع أن رؤيته الموت شافيا له هى أعظم الداء ؟!

إن هذا مثل للنقد الى يقف عند حد اللفظ .. بحثا عن وجه من وجوه الاستدراك ..

نقد المستحسن :

بعد هذه المحاولات من ابن شرف للبحث عن وجوه الخطأ والنقص فى المعنى واللفظ .. يشير إلى منهج الاستحسان والاستجادة فيقول :

« فأما نقد المستحسن فتمثيله لك يعظم ويتسع لكثرته ، فلا يسعنا إيراده ، وكفى ما سلم فى جميع ما أوردناه ، فهو فى حيز السالم .

ثم تتسع طبقات الجودة فيه : وأحسن الحسن منه ما اعتدل مبناه وأغرب معناه ، وزاد فى محمودات الشعر على سواه ثم يمدح الأدون فالأدون ، بمقدار انحطاطه إلى

حيز السلامة، ثم لا مدح ولا كرامة (١) » .

وهو بهذا يضع للشعر مراتب .. أفضلها ما تضمن معنى غريباً مع اعتدال المبنى .. « أما محمودات الشعر » فهى الوجوه الجمالية التى يتفاوت فيها الشعراء .. وأدنى المراتب ما تحققت فيه السلامة .. فإذا كان فى الشعر خطأ فى لفظه أو معناه .. فلا مدح ولا كرامة ! ومن هنا يمكن القول أن ابن شرف قد أشار إلى مقاييس نقد اللفظ ونقد المعنى ، على وجه الإجمال ، وبعضها يرجع إلى الذوق ، والآخر يرجع إلى قواعد لغوية أو قوانين منطقية .

● □ ●

وبعد .. فإذا أردنا أن نتبين قيمة هذه الآراء النقدية التى تضمنتها رسائل الانتقاد لابن شرف فإن علينا أن نقف أمام اللمحات التى سبق بها عصره .. والتى كان له فيها موقف خاص يخالف النظرة السائدة لدى النقاد .. وذلك يتضح فى المسائل الآتية :

١ — حكمه على بعض الشعراء بمنهج جديد فى تحليل نتاجهم ، كحكمه على الحارث بن حلزة وأبى نواس .. وقد يكون فى اجتهاده ما يحوج إلى المناقشة .. لكن منهجه فى النظر والاستدلال يستحق الاحتفاء والتقدير .

(١) رسائل الانتقاد ٤٦ .

٢ — انتصاره للأصالة وميله إلى جانب الطبع .. ونفوره من التصنع والإسراف فى البديع كما تجلى ذلك فى ثنائه على البحترى ونقده لأبى تمام ..

٣ — مناقشته الصلة بين اللفظ والمعنى .. والصياغة والمضمون .. وإيثاره جانب غرابة المعنى وإبداعه .. وقناعته باعتدال المبنى وسلامة اللفظ ..

٤ — منهجه الفكرى فى النقد .. حيث أرشد إلى التأمل قبل الحكم .. وإنعام النظر واستخدام الفكر .. حتى لا يكون النقد تابعاً للنظرة العجلى والانطباع الأول ..

٥ — إنصافه للمحدثين فى كل عصر .. وتخلصه من إجلال القديم لقدمه أو الإعجاب بالمذكور لشهرته .. ودعوته إلى الموضوعية والعدل فى الحكم بعد التمحيص ..

٦ — محاولته النفاذ إلى معايب شعر القدماء كامرئ القيس وزهير ... بتحليل معانى شعرهما وعرضها على الفكر والتجربة ..

وهو بهذا المسلك يدرب الناقد على النظر فى نتاج كل شاعر لا ترهبه شهرة .. ولا يتابع الأحكام الذائعة .. ولا يقلد غيره فى الاستحسان والقبول ..

٨ — انتباهه إلى مقاييس ذوقية مرهفة ، كخشونة

حروف الكلمة .. وتعقيد الكلام . ودعوته إلى رعاية التناسب بين أجزاء البيت والملاءمة فى التشبيه .. وربطه بين القيمة الخلقية والقيمة الفنية للشعر .

٩ — استقباحه للقوافى المستكرهة التى لا ترتبط بما قبلها من الكلام .. والتى يحمل عليها الضعف أو العجز

١٠ — إحياؤه لمنهج النقد العذرى ، ودعوته إلى رعاية ما تقتضيه آداب التعبير عن العاطفة .. وهى نزعة لم تلق اهتماماً إلا عند نفر قليل من النقاد . وجملة القول أن ابن شرف قد أراد بهذه اللمحات التى احتوتها رسائله الانتقادية أن يدل على منهج متكامل فى النقد .. يقوم على اعتبار النقد موهبة وذوقاً دقيقاً .. قبل أن يكون علماً مؤسساً على قواعد .. فليس النقد كالنحو أو الصرف أو العروض وقد يعجز العلماء بالشعر عن إدراك حقيقته إن لم يكونوا من أصحاب تلك الموهبة النقدية .. كما يقوم على إعمال الفكر وتحليل المعانى والتجرد من العصبية .. وترك الاستسلام للأحكام الذائعة والمقولات المشتهرة ...

وقد نختلف مع ابن شرف فى بعض تحليلاته أو أحكامه .. كما سبق بيانه .. لكننا نعجب بوضوح شخصيته وموقفه الذاتى .. حين لم يبال بتخطئته زهيرا .. الذى يجمع النقاد القدامى على تفضيله ..

بين ابن شرف وابن رشيق

كان أبو على الحسن بن رشيق — صاحب كتاب العمدة — معاصرا لابن شرف .. وكان بينهما منافسة ومهاجاة .. إبان اجتماعهما فى ديوان المعز بن باديس بالقيروان .. ثم انتهى الأمر بينهما إلى المودة والصداقة بعد أن رمت بهما المحن بعيداً عن الوطن ..

وكما كان ابن شرف شاعراً ناثراً ناقدا ، فكذلك كان ابن رشيق ، إلا أن ابن رشيق اشتهر بكتابه « العمدة فى صناعة الشعر ونقده » وهو من كتب النقد الجامعة لمقاييس نقد اللفظ والمعنى .. بينما ضاعت آثار ابن شرف التى أشار اليها فى مقدمة كتابه أعلام الكلام — كما أوردها ابن بسام فى الذخيرة .

وقد يكون من المفيد هنا أن نلقى نظرة مقارنة إلى جانب الشعر عند الرجلين ثم إلى جانب النقد .. أما النثر فيبدو أن طابع العصر غالب عليهما فى التزام السجع .. وفى التقيد بالألفاظ والمصطلحات ..

وقد نشر الأستاذ عبد العزيز الميمنى الراجكوتى مختارات من شعر ابن رشيق وابن شرف جمعها من

المصادر الأدبية والتاريخية وسماها « النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف » (١) .

وشعر ابن رشيق فى هذه المختارات أكثر من شعر ابن شرف لأن ابن رشيق قد ضمن كتابه « العمدة » بعض قصائده فوجد جامع هذه المختارات مادة وفيرة من شعر ابن رشيق بينما لم يورد ابن شرف شيئاً من شعره فى كتبه القليلة التى بقيت ..

ونبدأ المقارنة هنا بتأمل موقف الشاعرين من تخريب مدينة القيروان .. وقد كانا معا فى ديوان المعز بن باديس قبل أن تخرب .. فنرى أن ابن شرف — كما أسلفنا فى مطلع هذا البحث — قد بكى القيروان بكاء مؤثراً يكشف عن لوعة قلب ملأته الأحداث شجوا .. فلا حاجة بنا أن نورد له هنا ما قدمنا من شواهد بينما نجد أن بكاء ابن رشيق للقيروان لا يبلغ مبلغ صاحبه ابن شرف .. من حيث اللهجة .. أو العاطفة .. أو تكرار الحنين ..

والذى وجدناه لابن رشيق فى رثاء القيروان قصيدة

(١) طبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ .

واحدة تبلغ ستة وخمسين بيتا .. نحى فيها منحى تعداد المآثر والاشادة برجال القيروان أمراء وعلماء .

ولكن ابن رشيق لا يظهر فى هذه القصيدة ما أظهره ابن شرف من لوعة وحسرة وتذكر لحضارة القيروان وألم على تبدل حالها .. ولم يتمن العودة اليها كما تمنى ابن شرف . ولم يصحب أهلها فى خروجهم منها .. ولم يصور حالهم فى الأسفار فى الصحارى وفى لجج البحار .. كما صور ابن شرف ..

وكأنما يرثى ابن رشيق مدينة من المدن لا تربطه بها صلة ولم يكن له فى ربوعها أيام .. وذكريات .. يقول ابن رشيق (١) :

كم كان فيها من كرام سادة
بيض الوجوه شوامخ الإيمان
متعاونين على الديانة والتقى
لله فى الإسرار والإعلان
ومهذب جم الفضائل باذل
لنواله ، ولعرضه صوان

---

(١) النتف ص ٧٢ نقلا عن معالم الايمان ١/٥٢ .

وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا
سنن الحديث ومشكل القرآن
علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى
بفقاهة وفصاحة وبيان
وإذا الأمور استبهمت واستغلقت
أبوابها وتنازع الخصمان
حلوا غوامض كل أمر مشكل
بدليل حق واضح البرهان
هجروا المضاجع قانتين لربهم
طلباً لخير معرَّس ومعان
وإذا دجا الليل البهيم رأيتهم
متبتلين تبتل الرهبان
فى جنة الفردوس أكرم منزل
بين الحسان الحور والغلمان
تجروا بها الفردوس من أرباحهم
نعم التجارة طاعة الرحمن
المتقين الله حق تقاته
والعارفين مكايد الشيطان ..

هؤلاء علماء القيروان .. كما صورهم ابن رشيق ،

وكأنه يؤدى بوصفهم بهذه الصفة ، واجباً رسمياً ، وهى صفة مثالية لا تختلف بين علماء الإسلام كما ينبغى أن يكونوا فى أى زمان أو مكان .. ولا تختص هذه الصفة بمدينة القيروان ..

ويمضى ابن رشيق فيصور هيئة هؤلاء العلماء .. الذين كانوا لا يخشون فى الحق لومة لائم ، والذين خافوا الله سبحانه فخافهم كل الورى فيقول :

وترى جبابرة الملوك لديهم
خضع الرقاب نواكس الأذقان

لا يستطيعون الكلام مهابة
إلا إشارة أعين وبنان

خافوا الإله فخافهم كل الورى
حتى ضراء الأسد فى الغيران

تنسيك هيبتهم شماخة كل ذى
ملك وهيبة كل ذى سلطان !

أحلامهم تزن الجبال وفضلهم
كالشمس لاتخفى بكل مكان

بهؤلاء العلماء التقاة المهابين كانت القيروان تعد زهرة البلدان ، وبفضلهم كانت تزهو على مصر وبغداد :

كانت تعد القيروان بهم إذا
عد المنابر زهرة البلدان

وزهت على مصر وحق لها كما
تزهو بهم وغدت على بغدان

أما تعليل ابن رشيق لخراب القيروان فهو تعليل عجيب إذ يرى أنها أصابها حسد الليالى بعد ما اكتمل حسنها واجتمعت فيها الفضائل وأصبحت موطن الأمن والإيمان :

حسنت فلما أن(١) تكامل حسنها
وسما اليها كل طرف ران

وتجمعت فيها الفضائل كلها
وغدت محل الأمن والإيمان

نظرت لها الأيام نظرة كاشح
ترنو بنظرة كاشح معيان

أما وصفه للفظائع التى نزلت بأهلها .. فلا ترقى إلى تصوير ابن شرف .. المعبر عن الآلام المصور لهول المحنة .. أما ابن رشيق فكأنما يذيع بيان استنكار :

فتكوا بأمة أحمد .. أتراهم
أمنوا عقاب الله فى رمضان

---

(١) الاصل : اذ . وهو تحريف .

نقضوا العهود المبرمات وأخفروا
ذمم الإله ولم يفوا بضمان
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا
سبي الحريم وكشفة النسوان
ساموهم سوء العذاب وأظهروا
متعسفين كوامن الأضغان

أين هذا من قول ابن شرف :

آه للقيروان أنة شجو
من فؤاد بجاحم الحزن يَصْلَى
حين عادت بها الديار قبورا
بل أقول القبور منهن أخْلَى
ثم لا شمعة سوى أنجم تخ
طو على أفقها نواعس كَسْلَى
بعد زُهر الشماع تُوقد وقْداً
ومتان الذبَال تُفْتل فتلا

وقوله :

بعد يوم كأنما حشر الخل
ق حفاة به عوارى رَجْلَى
ولهم زحمة هنالك تحكى
زحمة الحشر والصحائف تتلى

وعجيج وضجة كضجيج الـ
خلق يبكون والسرائر تبلى
من أيامى وراءهن يتامى
ملئوا حسرة وشجوا وثكلا
وتكالى أراملا حاملات
طفلة تحمل الرضاع وطفلا

إلى آخر الشواهد العديدة التى أوردناها فى مطلع هذا البحث عند الإشارة إلى جانب الشعر فى أدب ابن شرف ..

وإذا كان ابن شرف قد صور حاله مع أطفاله .. الذين هاموا معه فى الفيافى وعلى أمواج البحار ..

فإن ابن رشيق لم يصور شيئاً من ذلك .. ولم نر له إلا هذه القصيدة التى تشبه الرثاء الرسمى .. أو إعلان الموقف والتى أطال فيها فى وصف علماء القيروان الذين كانوا مناط فخرها.ولم يصور حضارتها وزينتها المادية كما صورها ابن شرف .. ولم تكن قوافى ابن رشيق محكمة كقوافى ابن شرف .. بل نلحظ أن القوافى فى قصيدة ابن رشيق تأتى لرعاية الروى ولا تفيد معنى جديداً فى أكثر الأحوال كقوله: «عقاب الله فى رمضان» فلم خص رمضان .. وعقاب

الله للعصاة فى كل آن : وقوله بذلة وهوان وهما بمعنى واحد ..

ويمضى ابن رشيق فيقول :

والمسلمون مقسمون تنالهم
أيدى العصاة بذلة وهوان

ما بين مضطر .. وبين معذب
ومقتل ظلماً .. وآخر عان

يستصرخون فلا يغاث صريخهم
حتى إذ سئموا من الإرنان

بادوا نفوسهم ..فلما أنقذوا
ما جمعوا من صامت وصوان

واستخلصوا من جوهر وملابس
وطرائف وذخائر وأوان

خرجوا حفاة عائذين بربهم
من خوفهم ومصائب الألوان

فانظر كيف استكرهت القافية ابن رشيق على عكس الإضافة.. إذ أراد أن يقول : وألوان المصائب .. فإذا هو يقول : ومصائب الألوان !

حتى وصفه لهرب النساء من هذا الجحيم .. يبدو متكلفاً

مقصرا عن روعة تصوير ابن شرف لهوان النساء الكريمات في هذا اليوم العصيب !

يقول ابن رشيق :

هربوا بكل وليدة وفطيمة
وبكل أرملة وكل حصان
وبكل بكر كالمهاة عزيزة
تسبى العقول بطرفها الفتان
خود مبللة الوشاح كأنها
قمر يلوح على قضيب البان

أين هذا من قول ابن شرف :

وحَصان كأنها الشمس حسنا
كفنتها الأطمار نجلاء كَحْلاَ
فات كرسيها الجلاء فأضحت
في ثياب الجلاء للناس تُجْلى

فقد صور ابن شرف المأساة التي أصابت حرائر القيروان في عرضهن على الناس .. بعد الستر والحفاظ والنعمة .. أما ابن رشيق فقد تغزل فيهن وهن على تلك الحال السيئة :

خود مبللة الوشاح كأنها
قمر يلوح على قضيب البان

بينما وصفهن ابن شرف قبل هذا الهوان الذى نزل بهن..
حين افتقد الضياء فى القيروان :

ألا قمر إلا المقنع فى الدجى؟
فأين اللواتى ليلهن المعاجر

ويبكى ابن رشيق مسجد القيروان .. وما أصابه من عطل وخراب .. فيقول :

والمسجد المعمور جامع عقبة
خرب المعاطن مظلم الأركان
قفر فما تغشاه بعد جماعة
لصلاة خمس لا ولا الأذان
بيت به عبد الإله وبُطِّلت
بعد الغلو عبادة الأوثان
بيت بوحى الله كان بناؤه
نعم البنا والمبْتَنَى والبانى

بينما لم يشر ابن شرف إلى خراب المسجد .. ولم يصور حياة العلماء الأتقياء كما وصفها ابن رشيق .. لكن ابن شرف أشار إلى سيآت القيروان وما كان فيها من غشيان لبعض الكبائر :

ترى سيآت القيروان تعاظمت
فجلت عن الغفران؟ والله غافر

ترا ها أصيبت بالكبائر وحدها؟

ألمتلك قدماً فى البلاد الكبائر !

وبهذا كان ابن شرف واقعيا صادقاً فى تصويره .. أما ابن رشيق فقد حمله موقف الرثاء الرسمى إلى الحديث عن الحسنات والإغضاء عن السيآت ! حتى تصويره لهول هذا المصاب .. ينحو فيه منحى التقليد .. فالجبال تكاد تزلزل وبلاد المسلمين كلها فى حزن على هذه النازلة .. والنجوم فقدت ضياءها والشمس والقمر أظلما والأرض زلزلت :

أعظم بتلك مصيبة ما تنجلى
حسراتها أو ينقضى الملوان
لو أن ثهلانا أصيب بعشرها
لتدكدكت منها ذرا ثهلان
حزنت لها كور العراق بأسرها
وقرى الشآم ومصر والخرسان
وتزعزعت لمصابها وتنكدت
أسفا بلاد الهند والسندان
وعفا من الأقطار بعدخلائها
ما بين أندلس إلى حلوان

وأرى النجوم طلعن غير زواهر
في أفقهن وأظلم القمران
وأرى الجبال الشم أمست خشعا
لمصابها وتزعزع الثقلان
والأرض من وله بها قد أصبحت
بعد القرار شديدة الميلان

وهى صور تقليدية محفوظة .. تقوم على المبالغة والتهويل ، ولا نجد صدى لهذه الحادثة فى الشعر العربى فى تلك الفترة إلا عند ابن شرف وابن رشيق وأمثالهما من أهل القيروان . أما تمنى ابن رشيق للعودة إلى القيروان .. فلم يصل إلى حرارة أمنيات ابن شرف للعودة إلى هذه المدينة فابن رشيق يقول :

أترى الليالى بعد ما صنعت بنا
تقضى لنا بتواصل وتدان
وتعيد أرض القيروان كعهدها
فيما مضى من سالف الأزمان

وهى أمنية فاترة .. كأنما يؤدى بها ابن رشيق واجباً ثقيلا .. مع ما فى القافية من ضعف .. فالتواصل يغنى عن التدانى .. « وما مضى » يغنى عن سالف الأزمان .. أما ابن شرف فقد كانت لهجته أصدق وأرق .. وكانت

قوافيه أجود وأحكم حين قال فى تشوقه للقيروان :

يا قيروان وددت أنى طائر

فأراك رؤية باحث متأمل

آها وأية آهة تشفى جوى

قلب بنيران الصبابة مصطلى

يا أربعى فى القطب منها كيف لى

بمعاد يوم فيك لى.. ومن اين لى ؟!

يالوشهدت إذا رأيتك فى الكرى

كيف ارتجاع صباى بعد تكهلى

وحين أعلن أنه لن ينسى القيروان مهما عوضه الدهر بالإحسان :

لاكثرة الإحسان تنسى حسرة

هيهات تذهب علة بتعلل !

ثم ضمن قصيدته بيت جرير :

« لو كنت أعلم أن آخر عهدهم

يوم الرحيل فعلت مالم أفعل » ..

وهكذا يتضح من المقارنة أن بين موقفى ابن رشيق وابن شرف من رثاء القيروان .. بونا بعيداً .. يظهر مزية ابن شرف فى تجربته وصوره .. فهذه القصيدة الطويلة لابن رشيق التى قاربت الستين بيتا .. ليس فيها شىء

يستجاد .. ولا معنى يستفاد .. ولا عاطفة تؤثر .. ولا حزن يشجى .. ولا قافية تعذب .. وإنما هى كما أوضحنا ، من قبيل الرثاء المتكلف الذى يؤدى به الشاعر واجباً .. أو يسجل فيه حادثاً ..

أما ابن شرف ، فقد أبان فى قصائده العديدة فى التفجع على مدينة القيروان . شاعرية دافقة .. وروعة فى التصوير .. كما كشف عن عاطفة رقيقة .. وحسرة صادقة .

ولعل ابن رشيق لم يكن يعتبر القيروان موطنه .. إذ كانت ولادته بالمسيلة وتأدب بها قليلا ، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة . كما قال ابن بسام . وقال غيره ولد بالمهدية سنة تسعين وثلاثمائة ، وأبوه مملوك رومى من موالى الأزد وتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، وكانت صنعة أبيه فى بلده المحمدية الصياغة ، فعلمه أبوه صنعته ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر ، وتاقت نفسه إلى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب ، فرحل إلى القيروان ، واشتهر بها (١) .

فهو لم يعرف القيروان إلا بعد أن تأدب وبلغ مبلغ

---

(١) الحلل السندسية ص ١٠٠ . وترجمة ابن رشيق فى معجم الادباء ٨/١١٠ ووفيات الاعيان ١/٣٦٦ . وشذرات الذهب ٣/٢٩٧ .

الشباب .. أما صباه فقد كان بالمسيلة أو المحمدية .. وأبوه مولى رومى وأما ابن شرف فقد كانت ولادته بالقيروان.. وهو عربى الأصل ، ينهى نسبه إلى جذام وهى قبيلة من اليمن ، ولسنا من الذين يميزون الناس بأنسابهم .. فالعربية هى اللسان .. ولكننا بإزاء موقفين لشاعرين تجاه مدينة واحدة .. فلا بد من تعليل لجمود مشاعر ابن رشيق أو ضعف تعبيره عن هول المحنة التى نزلت بالقيروان.. بينما استطاع ابن شرف ، زميله ومنافسه ، أن يخلد هذه المحنة فى التاريخ .. بما وصفه من صورها المحزنة .. وما صوره من أهوال شداد .. وما أظهره من حسرة وشوق .. ذلك لأنها كانت ربوع صباه .. ومناط ذكرياته الأولى التى تبقى على الأيام ..

وقد كان بين ابن شرف وابن رشيق مناقضات ومهاجاة ، وقد ألف ابن رشيق فى الرد على ابن شرف عدة رسائل منها : رسالة قطع الأنفاس ، ورسالة ساجور الكلب ، ورسالة نجح الطلب ، ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية ، والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الإشكال ودفع المحال ..

وقد كان هذا كله قبل محنة القيروان .. أما بعد أن خرج الرجلان هاربين مع المعز بن باديس وأقاما فى

المهدية ، ثم ارتحلا إلى صقلية .. فقد تبدل الحال .. وحلت المودة والمصافاة محل العداوة والمهاجاة ..

وهذا ما يجب أن نلحظه عند المقارنة بينهما فى موقف أو نتاج أدبى .. فقد كان كل منهما ينظر إلى الآخر فى تأليفه وفنه الشعرى ويبتغى كل منهما الغلبة والعلو على صاحبه ومن هنا فإننا نرى الرجلين — فى نتاجهما الشعرى فيما عدا موقف الرثاء للقيروان — متماثلين كفرسى رهان .. يقول ابن رشيق :

أحب أخى وإن أعرضت عنه
وقل على مسامعه كلامى
ولى فى وجه تقطيب راض
كما قطبت فى وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض
وبغض كامن تحت ابتسام (١)

وقال ابن شرف يشكو الزمان :

سل عن رضاى عن الزمان فانه
كرضى الفرزدق عن بنى يربوع
لله حال قد تنقل عهدها

(١) وفيات الاعيان ١/١٣٢ . ومعجم الادباء ٣/٧٣ .

كخلاف نقل الدهر حال صريع (١)
دارت دراري الخطوب قواصداً
حتى نظرن إلىّ من تربيع ..

فإن النسج واحد.. والأسلوب متشابه.. عند الشاعرين كليهما .. ويبدو ذلك فى نظمهما فى غرض واحد .. فى مجلس المعز بن باديس .

وقد قال ابن شرف فى كتابه « أبكار الأفكار » :

استدعانى المعز بن باديس يوماً ، واستدعى أبا على الحسن بن رشيق الأزدى ، وكنا شاعرى حضرته وملازمى ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين يدى قطعتين فى صفة الموز ، على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدنا على ما صنعه الآخر ، فكان الذى صنعته :

ياحبذا الموز وإسعاده　　من قبل أن يمضغه الماضغ
لان إلى أن لا مجس له　　فالفم ملآن به فارغ
سيان قلنا مأكل طيب　　فيه .. وإلا مشرب سائغ

والذى صنعه ابن رشيق :

موز سريعٌ أكله　　من قبل مضغ الماضغ
مأكلة لآكل　　ومشرب لسائغ

---

(٢) يشير الى أبيات صريع الغوانى فى هذا المعنى .

فالفم من لين به ملآن مثل فارغ
يخال وهو بالغ للحلق غير بالغ

فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال ، فعملنا ، ولم ير أحدنا صاحبه ما عمل ، فكان الذى عملته :

هلل لك فى موز إذا ذقناه قلنا حبذا
فيه شراب وغذا يريك كالماء القذى
لو مات من تلذذا به لقيل ذا بذا

وما عمله ابن رشيق :

لله موز لذيذ يعيذه المستعيذ
فواكه وشراب به يداوى الوقيذ
ترى القذى العين فيه كما يريها النبيذ

قال ابن شرف : فأنت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة ، والقصد واحدا ، ولقد قال من حضر ذلك اليوم : ما ندرى مم نتعجب ، أمن سرعة البديهة ، أم من غرابة القافية ؟ أم من حسن الاتفاق » (١) .

وهذا الذى يسميه ابن شرف شعراً له ولابن رشيق ليس من الشعر فى الشيء .. بل هو نظم سخيف متكلف ..

---

(١) النتف ص ٢٩ .

لاحظ له من الشعر.. إلا هذه القوافى القلقة .. والشاعران معذوران فى هذا القصور اذ أن ممدوحهما المعز بن باديس .. قد أبى إلا أن يمتحنهما بهذا العناء .. فاختار الموضوع والقافية .. والشعر الذى يستحق هذا الاسم .. هو ما صدر تعبيراً عن شعور ونبعاً من الوجدان .. أما الأوصاف المتكلفة فهى مسابقات سخيفة .. كان الشعراء فى عصور الضعف يتكلفونها .. مجاراة لرغائب أصحاب السلطان ..

وإذا كان هذا رأينا فى شعر ابن رشيق وابن شرف ، فإن بعض الباحثين قد رفع ابن رشيق إلى مكانة فى عالم الشعر تدانى فى المغرب المتنبى وأبا نواس وابن الرومى وابن المعتز فى المشرق (١) » .

بل إن هذا الباحث يصف قصيدة ابن رشيق فى رثاء القيروان — وهى القصيدة التى أظهرنا ما فيها من ضعف وتكلف وفتور عاطفة وتقليد فى الصور واستكراه للقافية — بقوله :

« وهكذا صور ابن رشيق النكبة كأروع ما يكون التصوير وأشده تأثيرا فى النفس (! !) وذكر الوحدة بين الأمة العربية ، وكيف ألم للنكبة شرقها وغربها ، مصرها

(١) ابن رشيق الناقد الشاعر . للاستاذ عبد الرءوف مخلوف ص ٢٧٢ .

ولبنانها شامها وعراقها ، أندلسها وخراسانها ، بل كيف ألمت الهند والسند لما نزل بالقيروان . وقد أدى جميع هذه الأفكار فى قصيدته الطويلة ، دون أن يبدو عليه وهن ، أو يظهر فى أبياته ضعف ، الأمر الذى يدل على طول نفس الشاعر (١) .

ومثل هذه الأحكام العاطفية العجلى ، ليست من النقد الموضوعى فى شىء .. فإن عوار هذه القصيدة يتجلى من ملاحظة قوافيها القلقة المتكلفة .. قبل ملاحظة معانيها المبتذلة الشائعة .. وهى بالمقارنة مع قصائد ابن شرف فى الموضوع ذاته .. ضعيفة غير معبرة عن هول النازلة كما سبق بيانه ..

بل إن هذا الباحث يفضل قصيدة ابن رشيق فى رثاء القيروان على قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس :

لكل شىء إذا ماتم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان

بل يظن أن قصيدة أبى البقاء إنما كانت معارضة لقصيدة ابن رشيق .

وكيف .. والبحر مختلف .. وحركة الروى مختلفة ؟

وقصيدة ابن رشيق فى تخريب بلد .. بينما قصيدة أبى البقاء فى ضياع دولة . . وسقوطها فى أيدى أعداء الإسلام . . وقصيدة أبى البقاء من عيون الشعر العربى فى رثاء الدول والممالك . . ولا تقاربها قصيدة ابن رشيق فى شيء !

فى مجال النقد :

فإذا جئنا للمقارنة بين ابن شرف وابن رشيق فى مجال النقد الأدبى . . فإننا لانجد لابن شرف أثراً باقيا فى مجال النقد إلا رسائل الانتقاد التى عرضنا لدراستها فيما سبق ، وهى التى نشرت خطأ باسم « أعلام الكلام »

بينما نجد لابن رشيق أثرين باقيين : أحدهما رسالة صغيرة تسمى « قراضة الذهب فى نقد أشعار العرب (١) »
والثانى : كتاب « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده » وقد طبع فى جزأين عدة طبعات .

وقد أشار ابن رشيق إلى « قراضة الذهب » فى كتاب العمدة إذ قال بعد حديثه عن ابن الرومى وكثرة اختراعاته : «وسيأتى برهان ذلك فى الكتاب الذى شرطت تأليفه إن

(١) طبعت فى مطبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ ومنها مصورة فى دار الكتب المصرية رقم ٤٨٣١ ادب .

شاء الله سبحانه »(١) وقد وفى ابن رشيق بما وعد ، فتحدث عن ابن الرومى واختراعاته فى قراضة الذهب كما أشار إلى كتاب العمدة فى قراضة الذهب حين تحدث عن أخذ بعض الشعراء من بعض بقوله : « وفى كتاب العمدة من ذلك جملة كافية »(٢)

وإذن فهما كتابان متكاملان ، يمثلان فكر ابن رشيق ومذهبه فى النقد ..

ولا نستطيع المقارنة بين آثار ابن رشيق فى النقد وآثار ابن شرف فى الموضوع نفسه ، من جهة الكثرة ، والقلة فالأمر ظاهر من تلك الجهة . . ومن هنا فسننظر إلى المنهج الذى اتبعه كل منهما .. ومن الواضح أن ابن رشيق قد بذل جهده فى جمع مسائل النقد ومعالجة قضاياه ، بمنهج الرواية عن السابقين .. ومنهج النظر والتأمل الذاتى . . وقد عبر عن ذلك بقوله فى مقدمة كتاب «العمدة» : « وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى ، خوف التكرار ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية ، فإنه لاسبيل إلى تغيير شىء من لفظه ولا معناه ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل ما لم أسنده إلى رجل

---

(١) العمدة ٢/٢٤٤ .
(٢) قراضة الذهب ص ٢٠ .

معروف باسمه ولا أحلت فيه على كتاب بعينه ، فهو من ذلك ، إلا أن يكون متداولا بين العلماء لا يختص به واحد منهم دون الآخر » (١) .

ولم يقتصر ابن رشيق فى كتابه هذا على بيان محاسن الشعر ومساوئه .. وتناول القضايا النقدية المتداولة بين النقاد .. بل أوسع فيه المجال للحديث عن مسائل البلاغة بعلومها الثلاثة البيان والمعانى والبديع ، وإن كان قد أطال فى التعريف بعلم البديع واستعراض فنونه ، مالم يطل فى غيره كما أضاف ابن رشيق إلى تناول علوم البلاغة : علم العروض والقافية .. والأنساب وأيام العرب وبعض مسائل علم الفلك . . كحديثه عن منازل القمر وفصول السنة . وطرفاً من علم « الجغرافيا » فى حديثه عن جزيرة العرب والعراق والشام . . وبعض معارف العرب فى الجاهلية كالفأل والطيرة وزجر الطير !

ومن هنا فإن كتاب العمدة قد طال فى غير طائل ، إذ حشد فيه ابن رشيق علوما ومعارف لا تمت إلى النقد بصلة ولو جردت قضايا النقد الخالص فى هذا الكتاب .. وحذف

(١) العمدة ١/١٧ .

منه مالا مدخل له فى النقد لصغر حجمه .. ولم يبلغ هذا المبلغ الضخم الذى بلغه .

ولعل عذر ابن رشيق فى إيراد هذه العلوم .. أنها تكون ثقافة الناقد فى عصره . . إذ كان عليه أن يعرف أيام العرب التى ترد فى أشعارهم وأماكن الجزيرة والعراق والشام وغيرها من المواضع التى يرونها .. ومنازل القمر وأنواع الرياح . . وما يذكر فى الشعر الجاهلى من التفاؤل والتطير وزجر الطير ونحو ذلك من ثقافة الجاهلية . . إلى جانب معرفة أوزان الشعر وقوافيه وما يعرض لها من علل وما يلحقها من عيوب . . أما البلاغة بعلومها الثلاثة فقد كانت قانونا يرجع إليه الناقد لمعرفة حظ الشعر من التصوير . . وموقفه من التصنع والزينة . .

وهكذا فإن علوم النقد . . قد طغت فى كتاب العمدة على منهج النقد . . كما أن ابن رشيق قد جعله سجلا لأشعاره . . ومجالا للرد على خصومه ومنتقديه !

أما منهج ابن شرف فى رسائل الانتقاد ، فقد أوضحناه فيما سلف .. وهو يقتصر على الجوانب النقدية الثلاثة التى بيناها فى موضعها من هذا البحث (١) .

---

(١) انظر ص ٣٧ — ٣٨ .

وليس أمامنا فى مجال المقارنة بين ابن شرف وابن رشيق فى موضوع النقدإلا أن نقف أمام مسألتين :

أولاهما : موقف الرجلين من بعض القضايا النقدية التى عالجها كل منهما . .

ثانيهما : هل استمد أحدهما من صاحبه بعض الأفكار أو الآراء .. أم كان كل منهما أصيلا فى تناوله ؟

أما المسألة الأولى فيمكن تبينها فى القضايا المشتركة بينهما وتتمثل فى الحكم على بعض الشعراء . . وفى موقف كل منهما من القضايا النقدية التى طال الجدل فيها .

ففى جانب الحكم على الشعراء نرى التشابه بين ابن شرف وابن رشيق فى بعض المسائل . . كحكمهما على امرئ القيس .. وكلاهما فى هذا الحكم متبع لا مبتدع . . كما سبقت الإشارة إلى ذلك فى موقف ابن شرف من امرئ القيس (١) . لكن ابن رشيق كان ناقلا لألفاظ السابقين فقد قال : « وقد قال العلماء بالشعر : إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال ما لم يقولوا ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها . . » (٢) فهذه

---

(١) انظر ص ٣٩ من هذا البحث .

(٢) العمدة ١/٩٤ .

ألفاظ محمد بن سلام الجمحى فى طبقات فحول الشعراء بتصرف قليل .. كما اقتبس منه ابن رشيق فى الفقرة نفسها جملا أخرى دون الإشارة إليه (١) .

أما ابن شرف . . فقد انفرد بذكر بعض الأمثلة لسبق امرئ القيس ومتابعة الشعراء له كما أوضحناه من قبل ولم يتابع ابن رشيق الحكم على شعراء الجاهلية ، كما صنع ابن شرف ، وإنما كان هم ابن رشيق أن يجمع آراء السابقين فيمن هو أشعر شعراء الجاهلية وكان له فى ذلك تحليل واستدراك على أقوال السابقين . . كما صنع فى بيان تناقض ابن سلام فى الحكم على زهير (٢) .

ومن هنا يمكن القول أن موضوع الحكم على الشعراء يختلف عند ابن شرف وابن رشيق . . وما يتفقان فيه فهما فيه عالة على السابقين . . وقد بينا من قبل انفراد ابن شرف فى بعض أحكامه . . فقد كان موقفه من أبى نواس كما أوضحنا من قبل ، موقف الرافض لمنهجه المزرى بشعره لأنه « ترك السيرة الأولى ونكب عن الطريقة المثلى (٣) »

---

(١) طبقات ابن سلام ١/٥٥ والعمدة ١/٩٤ .

(٢) العمدة ١/٩٨ .

(٣) رسائل الانتقاد ٢٢ .

أما ابن رشيق فقد أشاد بأبي نواس في مواضع من كتاب العمدة كقوله : « ومعاني أبي نواس واختراعاته كثيرة (١) » وقوله : « ولا نعلم مولداً بعد بشار أشعر من أبي نواس »(٢)

لكنه روى بعض ما نقد به شعر أبي نواس وتوقف في الحكم في بعض المسائل .. كقوله في دعوة أبي نواس لتغيير مطالع القصيد :

« وزعموا أن أول من فتح هذا الباب وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند

واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقوله — وهو عند الحاتمي فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين :

صفة الطلول بلاغة الفدم

فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر ، وأخذ عليه أن يذكرها في شعره قال :

---

(١) العمدة ٢٤٣/٢ .

(٢) العمدة ٢/١١٠ .

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط
تضيق ذراعى أن أرد له أمرا
فسمعا أمير المؤمنين وطاعة
وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلا فهو عنده فراغ وجهل ، وكان شعوبى اللسان ، فما أدرى ما وراء ذلك ، وإن فى اللسان وكثرة ولوعه بالشىء لشاهداً عدلا لا ترد شهادته » (١) .

فنرى ابن رشيق يصف أبا نواس بشعوبية اللسان .. ويتوقف فيما وراء ذلك .. أى أنه لا يستطيع الحكم عليه بشعوبية القلب والفكر . . وإن كان القول يرشحه لذلك ..

لكن ابن رشيق لم يصنع صنيع ابن شرف فى الحكم على أبى نواس بأن سبب الإعجاب به يرجع إلى ضعف القرائح .. وشغف العامة بما فى شعره من خروج ومخالفة .. واكتفى بإيراد ما قيل فى نقد شعره ، نقداً موضوعايًا كما صنع فى قوله : « ومن قبيح ما وقع لأبى نواس الذى،

---

(١) العمـدة ١/٢٣١ — ٢٣٢ .

أساء فيه أدبه وخالف فيه مذهبه ، أن بعض بنى برمك بنى دارا استفرغ فيها مجهوده وانتقل اليها ، فصنع أبو نواس فى ذلك الحين أو قريبا منه قصيدة يمدحه بها يقول فى أولها :

أربع البلى إن الخشوع لباد
عليك وإنى لم أخنك ودادى

وختمها أو كاد بقوله :

سلام على الدنيا إذا ما فُقِدتم
بنى برمكٍ من رائحين وغادى

فتطير منها البرمكى واشمأز حتى كلح وظهرت الوحشة عليه» (١)فهذه إساءة للأدب ومخالفة للمذهب .. فى رأى ابن رشيق وهى سيئة تقابلها حسنات كثيرة نبه عليها وأشاد بها . ومن هنا فان ابن رشيق فى موقفه من أبى نواس أقرب إلى الموضوعية والنصفة ، أما ابن شرف فقد رفض شعره وهجن كل مسالكه ..

وقد اتفق الرجلان فى موقفهما من ابن الرومى .. إذ يقول عنه ابن شرف : « شجرة الاختراع وثمرة الابتداع »(٢)

(١) العمدة ١/٢٢٤ .
(٢) رسائل الانتقاد ٢٤ .

ويقول عنه ابن رشيق : « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه فى كل وجه وإلى كل ناحية حتى يميته ويعلم ألا مطمع فيه لأحد » (١)

أما موقف الرجلين من قضايا النقد المشتركة بينهما .. فليس فيه تعارض أو اختلاف ..

ففى قضية اللفظ والمعنى نراهما يرجحان جانب المعنى على جانب اللفظ . . فابن شرف يقول : « وانظر إلى ما فى سكناه من معناه ، فإن كان فى البيت ساكن فتلك المحاسن ، وإن كا خالياً فاعدده جسماً باليا »(٢) .

وابن رشيق يقول عن البيت من الشعر : « وساكنه المعنى ولاخير فى بيت غير مسكون » (٣) . ويقول : « فإن اختل المعنى كله وفسد بقى اللفظ مواتا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينتقص من شخصه شيء فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة » (٤) وإن كان ابن رشيق قد أشار إلى قيمة

---

(١) العمدة ٢/٢٣٨ .

(٢) رسائل الانتقاد ٢٧ .

(٣) العمدة ١/١٢١ .

(٤) العمدة ١/١٢٤ .

اللفظ الذى هو كالجسد للروح : « وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة » (١) .

وهى صورة فرضية عجيبة .. فليس هناك عمل أدبى يختل لفظه جملة ويتلاشى ! وإلا فهو معدوم غير موجود. لأن الألفاظ المختلة لا تدخل فى إطار أدب شعراً أو نثرا. . وكل لفظ أدبى جمالى لا بد له من معنى . . مادام سليم النظم .

لكن تشبيه ابن رشيق للعلاقة بين اللفظ والمعنى بعلاقة الجسد بالروح .. هو الذى أدى إلى تصور جسد بلاروح أو روح بلا جسد . وليس شيئاً من ذلك التصور سائغاً فى طبيعة الأدب . .

والمهم هنا أن ابن رشيق يرى أن المعنى هو الروح . . والروح أشرف من الجسد بغير جدال .

وهذا هو رأى ابن شرف أيضا كما أوضحناه ..

أما قضية القدماء والمحدثين فإن رأى ابن شرف فيها أعدل وأحكم .. وهو الرأى الذى ارتضاه الجاحظ وابن قتيبة ، كما سبق بيانه ..لكن ابن رشيق مع إقراره للمحدثين

---

(١) المرجع السابق .

بوفرة المعانى وكثرة الاختراع إلا أنه يجعلهم متكلفين غير مطبوعين .. كما يفهم من المثل الذى ضربه للقدماء والمحدثين .

« وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن » (١) .

وإن كان يرى أن المحدث إذا اتبع سبيل القدماء فى حلاوة الكلام وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة كان له الفضل : « ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته مع البعد عن السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم ، إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولد المحدث على هذا — إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ومعرفة الصواب ، مع أنه أرق حوكا وأحسن ديباجة » (٢) .

فابن رشيق لا يرى للمحدث مزية إلا بحسن الاتباع ومعرفة الصواب ، مع رقة الصياغة وحسن الديباجة ..

---

(١) العمدة ١/٩٢ .

(٢) العمدة ٢/٩٣ .

وابن رشيق يرى أن الآلات قد ضعفت عند المتأخرين وأن عصورهم عصور ضعف .. يزداد ضعفها كلما تقدم الزمان : « وإن قال قائل : ما بالكم معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلت فى أيديكم المعانى ، وضاق بكم المضطرب ؟ قلنا : أما المعانى فما قلت ، غير أن العلوم والآلات ضعفت ، فليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم فى نقص ، وأن الدنيا على آخرها » (١) .

لكن ابن شرف يرى أن على الناقد أن يحكم على الشعر فى ذاته دون إجلال للقديم أو إزراء بالحديث .

أما قضية السرقات فإن موقف ابن شرف وابن رشيق متشابه فيها ..

● □ ●

ثم نأتى إلى المسألة الثانية : وهى : هل تأثر أحد الرجلين بصاحبه ؟ أم أن الاتفاق يرجع إلى تشابه المصادر ووحدة الثقافة التى تأثر بها كل منهما .

وهنا نلحظ أن ابن رشيق يدفع عن نفسه فى كتاب العمدة شبهة الأخذ عن معاصريه ولعله يعنى ابن شرف من بينهم . وذلك إذ يقول :

« وقد بلغنى أن بعض من لا يتورع عن كذب ولا يستحيى

---

(١) العمدة ٢/٢٣٨ .

من فضيحة زعم أنى أخذت عنه مسائل من هذا الكتاب ، لو سئل عنها الآن ما علمها والامتحان يقطع الدعوى ، كما قال بعض الشعراء :

من تحلى بغير ما هو فيه   فضح الامتحان ما يدعيه

وكنت غنيا عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى من أشرت إليه ، أنفا من ذكره وعزوفا بهمتى عن الانحطاط إلى مساواته ، ولكن رأينا السكوت عنه عجزا أو تقصيرا » (١).
والذى يعنينا هنا أن ابن شرف لم يكن عالة على ابن رشيق فى شىء من مباحث النقد .. وأن ابن رشيق كان يدفع عن نفسه تهمة الأخذ من معاصريه . . وقد كان بينه وبين ابن شرف منافسة ومهاجاة ، كما أشرنا من قبل ، وقد كانت هذه المنافسة فى مجال الشعر . . فلا عجب أن تنتقل إلى ميدان النقد أيضاً ..

وقد تعرض أحد الباحثين المعاصرين لتلك القضية فى دراسة له عن ابن رشيق (٢) . وقد مال هذا الباحث إلى أن يكون ابن رشيق متأثرا فى بعض القضايا النقدية

(١) العمدة ٢/٢٣٩ — ٢٤٠ .
(٢) ابن رشيق الشاعر الناقد للاستاذ عبد الرءوف مخلوف .

بابن شرف ومثل لذلك ببعض الأمثلة التى أشرنا إليها فى هذه المقارنة . .

ويستظهر الباحث على ذلك بمحاولة تعيين الفترة التى كتب فيها ابن شرف رسالته فى النقد والفترة التى ألف فيها ابن رشيق كتابه العمدة .

ويرجح أن ابن شرف كتب رسائل الانتقاد مابين عامى عشر وأربعمائة ،وعشرين وأربعمائة ، أما كتاب العمدة ، فقد ألف بين عامى اثنى عشر وأربعمائة وخمس وعشرين وأربعمائة ثم يقول :

« وعلى هذا يكون ما ادعى على ابن رشيق من أنه أفاد من الرسالة لا استحالة فيه . فإذا أضفنا إلى ذلك أن بين الرسالة « رسالة أعلام الكلام (١) لابن شرف » وبين كتاب « العمدة » « وقراضة الذهب » لابن رشيق مشابه فى كثير من الموضوعات ، زاد ترجيح الأخذ أو فى الأقل لم يصبح مستحيلا » (٢) .

وإن كان الباحث يعود بعد استعراض هذه المشابه ،

---

(١) كذا . والصواب : رسائل الانتقاد .

(٢) ابن رشيق الشاعر الناقد ص ٥٨ — ٥٩ .

فيتوقف فى الحكم لأن ابن شرف يتحدث فى رسالته هذه عن الغربة والفتنة وأهوال البر والبحر .. « ولا نعرف إلا فتنة القيروان ووحشة الاغتراب فى صقلية ثم فى الأندلس، فهل كتب رسالته بعد هذا كله ، وإذا كان الأمر كذلك لا يكون ابن رشيق أخذ عنه لافى العمدة ولا فى قراضة الذهب » (١) .

وهكذا عاد البحث فعرض دليل النفى ، بعد أن عرض دليل الإثبات ، وتوقف فى الحكم : « ولعل ظروفا تسمح بتحقيق هذه القضية بعد » (٢) .

والذى نراه أن كلا الرجلين أصيل فى بحثه .. لا يحتاج أن ينقل عن صاحبه .. ولا أن يتأثر به .. فقد كانا كفرسى رهان .. كلاهما شاعر وناثر وناقد .. ونشأتهما فى بيئة متشابهة .. وعلاقتهما بديوان المعز بن باديس فى القيروان ثم فى المهدية .. تجعل كلا منهما يسعى لإثبات أصالته وينأى بنفسه عن التقليد والنقل . .

وإذا كان ابن رشيق قد دفع عن نفسه تلك الشبهة فى النص الذى أشرنا اليه فى كتاب العمدة ، فلا يجوز أن يقع

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ .
(٢) المرجع السابق .

فى خطأ الأخذ عن منافسه و هو يعلم أنه يحصى عليه كلماته وينظر بعين النقد إلى كتبه و رسائله ..

والتشابه الذى وقع بينهما فى بعض القضايا يرجع كما أشرنا — إلى وحدة الثقافة و تشابه البيئة ، و تجانس الرأى .. مع أن هناك فروقاً بينهما فى كثير من المواقف ، كما أوضحناه فى هذه المقارنة .

هذا إلى أن آثار ابن شرف قد ضاع أكثرها . . و لو بقيت لنا لأمكننا أن نستجلى آراءه فى كثير من المسائل النقدية أما رسائل الانتقاد ، فقد كشفت عن منهجه وأوضحت فكره النقدى ، البعيد عن التقليد و النقل ، والذى يدعو إلى أن يكون النقد تأملا عقليا . . لا انفعالا طارئا .. وأن يستوى فى نظر الناقد المشهور والمغمور والقديم والمحدث ، فكلهم فى ميزان الحق سواء . . لا يتميزون إلا بالأصالة و الإحسان . .

فهـــرس الموضوعـــات